

الفصل الثالث عشر

نمو المعرفة (١٣٠٠ - ١٥١٧)

١ - السحرة

لم ينزل القرنان اللذان صور تاريخهما الأوربي تصويراً مجملاً سريعاً في الفصول السابقة ، يعدان جزءاً مما اصطلاح على تسميته بالعصر الوسيط وهو ما نستطيع أن نحدده تحديداً تقريبياً بأنه سيرة أوربا بين قسطنطين وكولبس ، أي من ٣٢٥ إلى ١٤٩٢ . وإذا أردنا أن تلخص الآن العلم والتربية والفلسفة في غرب أوربا إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فيجب أن نتذكر أن الدراسات العقلية كان عليها أن تحارب من أجل الحصول على التربية والهواء في غابة من الحرافة والتعصب والخوف . وبين أحداث القحط والطواعين والحروب ، وفي الفوضى الضاربة على البابوية الشاردة والمنقسمة على نفسها بحث الرجال والنساء في القوى الخفية عن بعض التماسير لما ينزل بالإنسانية من شقاء خفي وعن قوة سحرية ما تتحكم في الأحداث ، وعن ضرب من الفرار الصوفي من الواقع المرير ، وسارت حياة العقل متعثرة في وسط من العرافة والسحر واستحضار الأرواح وقراءة الكف ودراسة الدماغ والاستنباء بالعدد والعيافة والطيبة والتنبؤ وتفسير الأحلام وطوالع النجوم والتحويل الكيميائي للمواد والعلاج بالحوارق وللقوى الخفية في الحيوان والمعدن والنبات . ولا تزاو هذه الأعاجيب حية في أعظافنا اليوم . وتظفر هذه أو تلك منها بالولاء الصريح أو الخفي من كل واحد منا تقريباً . ولكن تأثيرها الحالي في أوربا اليوم أقل بكثير من سلطانها في العصور الوسطى . . .

ولم تدرس النجوم من أجل هداية السفن أو تحديد المواسم الدينية فحسب وإنما درست من أجل التنبؤ بما يقع على الأرض من أحداث وما يخبأ للأشخاص من مصير . ويبدو أن التأثير النافذ للمناخ والفصول وعلاقة المد والجزر بالقمر والتوقيت القمري للطمث عند المرأة واعتماد الزراعة على أحوال السماء وكيفياتها ، إنما تبرر مزاعم التنجيم بأن سماء اليوم تكشف عن أحداث الغد . وكانت أمثال هذه التنبؤات تنشر بانتظام (كما هو الحال الآن) وتبلغ جمهوراً كبيراً متعطشاً لها . ولم يكن الأمراء يجسرون على القيام بحملة أو واقعة أو رحلة أو تشييد بناء إلا إذا حصلوا على تأكيد من المنجمين بأن النجوم في أوضاع ملائمة لهذه الأغراض . ولقد حرص هنري الخامس ملك إنجلترا على الاحتفاظ باصطرلاب لرسم خريطة السماء ، ولما جاء زوجته المخاض قرأ بنفسه طالع الطفل وكان بلاط متياس كورفينوس الذى يضم صفوة المثقفين يرحب بالمنجمين ترحيبه بعلماء الإنسانيات .

واعتقد الناس أن الملائكة تهدي النجوم ، وأن الهواء يزخر بالأرواح الخفية ، بعضها من الجنة وبعضها من الجحيم . وسكنت العفاريت كل مكان وبخاصة فى مخدع الإنسان ، وينسب إليها بعض الرجال ما يسلب منهم بالليل كما نسب إليها بعض النساء ما يصيبهن من حمل فى غير أوانه ، وأجمع علماء الدين على أن أمثال تلك الخطيات الخبيثات ذن وجود حقيقى ويستطيع كل امرئ ساذج فى كل منعطف وكل لحظة أن يخرج من عالم الحس إلى مملكة من الكائنات والقوى المسحورة . ولكل شىء طبيعى صفات خارقة . وكانت كتب السحر من أروج الكتب فى ذلك العصر . ولقد عذب أسقف كاهورز وجلد وأتى به فى المحرقة (١٣١٧) بعد أن اعترف بأنه أحرق تمثالا من الشمع للبابا يوحنا الثانى والعشرين آملا أن يلقى الأصل ، مصير الشمع ، كما وعد بذلك فن السحر . واعتقد الناس أن فطير الثربان بتقديس القسيس ينزف دم المسيح إذا خدش .

وخبث شهرة الكيماويين ، ولكنهم استمروا في أبحاثهم الأمانة
وخذعهم البراقة على السواء وفي الوقت الذي أنكرتهم فيه المراسيم الملكية
والبابوية فقد أقنعوا بعض الملوك بأن الكيمياء قد تفعم الكنوز متى نصبت ،
وكان السندج يبتلعون « الذهب المذاب » الذي أكد لهم أنه يشفى كل شيء
إلا الغفلة (ولا يزال المرضى والأطباء يتعاطون الذهب في علاج داء
المفاصل) . . .

ونافس علم الطب في كل خطوة من خطواته ، التنجيم وعلوم الدين
والدجل . ونسب جميع الأطباء تقريباً تشخيص مرض من الأمراض إلى
البرج الذي ولد أو مرض فيه المريض ، وهكذا كتب الجراح العظيم جى
ده شولياك (١٣٦٣) : « إذا جرح امرؤ في عنقه والقمر في برج الثور ،
فالإصابة خطيرة » ومن أقدم الوثائق المطبوعة ، تقويم نشر في منز (١٤٦٢)
يبين أحسن الأوقات من ناحية طوابع النجوم لفصد الدم . ونسبت الأوبئة
بين جمهرة الناس إلى اجتماع سيئ الطالع بين النجوم . وأرجع ملايين
المسيحيين ، الشفاء إلى العقيدة وربما كان ذلك لخيبة أملهم في الطب .
وذهب آلاف إلى ملوك فرنسا وإنجلترا يستشفون من الدرن الحزيرى
بلدسة ملكية ويبدو أن هذه العادة قد بدأت بلويس التاسع الذى أدت
قداسته إلى الاعتقاد بقدرته على عمل المعجزات . وظن الناس أن قوته ،
قد انتقلت منه إلى خائفائه ، كما انتقلت عن طريق ايزابلا أميرة فالوا ،
وهى أم إدوارد الثالث ، إلى ملوك إنجلترا . وحج آلاف أكثر إلى أضرحة
تشفى المرضى ، وحولوا بعض القديسين إلى أطباء متخصصين ، وهكذا
اكتظت كنيسة القديس فينوس بالمصابين بداء الرقص الزنجى ، إذ ساد
الاعتقاد بأن هذا القديس متخصص في علاج هذا المرض وأصبح قبر
بيرده لكسمبورج ، وهو كاردينال مات في الثانية عشرة من عمره بسبب
غلوائه في الزهد ، مزاراً محبباً ، ونسب شفاء ألف وتسعمائة وأربعة وستين

شخص إلى قدرة عظامه السحرية ، وذلك في خلال خمسة عشر شهراً من وفاته . وراجت صناعة الدجالين ، ولكن القانون بدأ يقاومهم . ففي عام ١٣٨٢ حكم على روجر كيرك ، الذي ادعى علاج المرضى بالترقي ، أن يسير في شوارع لندن راكباً وقد علق المباول حول عنقه .

واعتقد معظم الأوربيين في السحر ، أو بعبارة أخرى ، في قوة بعض الأشخاص على التحكم في الأرواح الشريرة والحصول على معاونتها . لقد كانت القرون المظلمة متنورة نسبياً في هذه الناحية . ولقد أنكر القديسان بونيفاس واجوبارد الاعتقاد في السحر باعتبارها ذنباً وعملاً يوجب السخرية ، وجعله شارلمان جريمة يعاقب مقترفها بالإعدام وكان يشنق كل شخص يتهم بصناعة السحر ، وحرّم البابا جريجورى السابع هلدبيراند ، على محكمة التفتيش ، أن تحاكم السحرة على أنهم السبب في العواصف والطواعين ولكن تأكيد الوعاظ لخطيئة جهنم ومكائد إبليس أذكى الاعتقاد الشعبي في وجود الشيطان وشره في كل مكان أو وجود أحد أعوانه ، وكم من عتل مريض أو نفس يائسة اعتصمت بنكرة استحضر أمثال هذه الشياطين لمعاونتها . واتهم بالسحر أنواع شتى من الناس ، يدخل فيهم البابا بونيفاس الثامن . ولقد شنق الرجل الإستقراطي انجراند ده ماريني بتهمة السحر عام ١٣١٥ ، وأمر البابا جون الثاني والعشرون عام ١٣١٧ يتمبل عدد من الأشخاص غير المعروفين ، لأنهم دبوا اغتياله مستعينين بالشياطين . وأنكر جون مراراً الالتجاء إلى الشياطين وأمر باضطهاد من يقترفه ، وفرض العقوبات عليه ، وأكّن الناس فسروا مراسيمه بأنها تؤيد اعتقادهم في وجود القوى الشيطانية وإمكان الانتفاع بها . وتضاعف الاتهام بالسحر بعد عام ١٣٢٠ ، وشنق كثير من المتهمين أو ألقى بهم في المحرقة . وساد في فرنسا الرأي القائل بأن شارل السادس قد أصيب بالجنون بوسائل سحرية ، واستخدم ساحران لإعادة العقل إليه ، فلما أخفقا . جزرأساهما (١٣٩٧) .

وفي عام ١٣٩٧ أصدرت كلية أصول الدين بجامعة باريس ، ثمانية وعشرين
مقالة تحرم السحر ، وإن اعترفت بقدرته بين حين وآخر . وعد قاضي
القضاة جرسون أن من الهرطقة أن يناقش المرء وجود الشياطين
أو نشاطها .

أما الكهانة فهي ممارسة السحر بوساطة أشخاص نسبوا إلى عبادة إبليس
باعتباره كبير الشياطين الذين يعملون على استخدامها في اجتماعات ليلية
أو سبتية . ويذهب الاعتقاد الشعبي إلى أن السحرة ، وأغلبيتهم من النساء
يزودون بقوى خارقة في مقابل عبادتهم لإبليس . وانتدابهم على هذا الوجه
يجعلهم يسيطرون على النواميس الطبيعية ، ويجلبون النحس أو الموت لمن
يريدون . رأيد علماء أمثال ارازمس وتوماس مور وجود الكهانة في الواقع ،
وشك فيها بعض القسس في كلونيا ، وأيدت وجودها جامعة كلونيا . وزعم
معظم رجال الكنيسة - ويوافقهم في ذلك بعض المؤرخين من غير رجال
الدين إلى حد ما - أن الاجتماعات السرية بالليل إنما هي تعلات لعلاقات
جنسية مخنطة ولتحريض الشباب على الفسق . واعترف بعض السحرة
اعترافاً مزعوماً لشخص أو لآخر بالأعمال الشريرة التي أسندت إليهم ،
وذلك إما بوساطة وهم مخبول ، وإما للتخلص من التعذيب ، ولعل هؤلاء
السحرة الشعبيين قد قاموا بما يشبه التحذير النهائي لمسيحية مثقلة ، وبنزعة
ترفيهية من ناحية وتمرده من ناحية أخرى لعبادة إبليس باعتباره العدو
القوى لإله يحكم على كثير من المباحج بالكبت ويلقى بكثير من الأرواح
في الجحيم ، وقد تذكر هذه الشعائر الخفية وتؤكد من جديد العقائد
في الأعياد الوثنية لألهة الأرض والحقل والغابة الخاصة بالتناسل والإنجاب
أمثل بانخوس وبريابوس وسيريس دفلورا .

واجتمعت جهود الأوساط المدنية والدينية على قمع ما رأوه أكبر
فساد وكفر . وانتاب عدد من البابوات - في الأعوام ١٣٧٤ و ١٤٠٩

و١٤٣٧ و١٤٥١ وبخاصة البابا انوسنت الثامن عام ١٤٨٤ - عملاء في محكمة التفتيش للتصرف مع السحرة باعتبارهم هراطقة منبوذين ، تصيب جرائمهم ووسائلهم الثمرات والأرحام بالأذى ، وقد تحول مزاعمهم جماعات بأسرها إلى الشيطنة واعتمد البابوات اعتمادا حريا على آية في سفر الخروج (الأصحاح ٢٢ : الآية ١٨) « لن تزك ساحرة تعيش » . ومع ذلك فإن المجالس الكنسية قبل سنة ١٤٤٦ كانت تكتفي بالعقوبات المعتدلة إلا إذا كان المذنب السابق العفو عنه قد عاد إلى سابق إجرامه . ولقد أحرقت محكمة التفتيش عام ١٤٤٦ ، عددا من السحرة في هيلدبرج ، وأحرقت عام ١٤٦٠ اثني عشر رجلا وامرأة في أراس ، وأطلق عليهم الفودوا كما أطلق على الهراطقة (waldenses) وقام السحرة في فرنسا برحلة عبر الاطلنطي حتى أطلقت كلمة فودويزم voodooism على سحر الزنوج في المستعمرات الفرنسية في أمريكا . وفزع جاكوب سبرنجر قاضي محكمة التفتيش الدومينيكي فزعا شديدا من انتشار السحر فأصدر عام ١٤٨٧ دليلا رسميا لمطاردة السحرة عنوانه : « مطرقة السحرة » . وقدم مكسميليان الأول وكان إذ ذاك ملك الرومان لهذا الدليل برسالة تفريظ قال فيها أعظم أثر هائل ضد الخرافة أنتجه العالم . وقال سبرنجر إن هؤلاء النسوة الشريزات بتقايب خيرة شيطانية في قدر أو بوسائل أخرى ، يستطعن إحضار أسراب من الجراد والديدان لتلهم محصولا كاملا ، وهن يستطعن أن يصبن الرجال بالعقم ويجعلن النساء عقيمات ، ويفضن لبن المرضع أو يجهض الحامل ، ويستطعن بنظرة واحدة فقط أن يجلبن الحب أو الكراهية ، المرض أو الوفاة . ويختطف بعضهن الأطفال ويشوينهم ويأكلونهم . ويستطعن رؤية الأشياء عن بعد ويتنبأن بالحو ، وفي إمكانهن أن يحولن أنفسهن أو غيرهن إلى حيوانات . وأبدى سبرنجر ، دهشته لماذا يفوق الساحرات عدد السحرة من الرجال ، ونحتم بحثه بقوله إن ذلك لأن النساء أخف روؤسا وأكثر

شهوة من الرجال ، وأضاف أنهم ، إلى هذا كله ، وسائل محبوبة دائمة لإبليس . ولقد أحرق ثمانية وأربعين منهن في مدى خمس سنوات . ومنذ عهده ، زاد هجوم رجال الدين على صناعة السحر حتى بلغ أوجه في القرن السادس عشر ، في كنف الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، وبهذا الضرب من العنف الهائل تفوقت الأزمنة الحديثة ، على العصور الوسطى . وفاخر أحد موظفي محكمة التفتيش عام ١٥٥٤ ، بأن محكمة التفتيش ، قد أحرقت ثلاثين ألفاً من السحرة على الأقل ، وإذا تركوا بلا عقاب فقد ينزلن الخراب بالعالم كله .

ولقد ألفت كتب كثيرة في هذا العصر لمحاربة الخرافات وتحتوى كلها على خرافات . ووجه أجوستينو ترينفو إلى البابا كلمنت الخامس ، رسالة بنصحه أن يحرم السحر الخفى ولكن ترينفو رأى أن الطبيب لا يغتفر له أن يجرى فصادا في مراحل معينة من أوجه القمر ، ووجه البابا جون الثانى والعشرون ضربات قاسية للكيمياء (١٣١٧) والسحر (١٣٣٧) ، ونعى ما ظنه انتشارا متزايدا لتقديم القرابين إلى الشياطين ، وأخذ العهد على إبليس وصناعة التماثيل والحوام والامزجة للأغراض السحرية ، وأصدر قراراً تلقائياً بالحرمان ضد جميع الذين يمارسون هذه القوانين ، ولكنه أضمر اعتقاداً في قدرتها .

وكان نيقولا أرزم هو الخصم العنيد للتنجيم في ذلك العصر ، وقد توفى وهو أسقف ليزيوه عام ١٣٨٢ . وسخر من المنجمين ، الذين لا يستطيعون تحديد جنس الطفل قبل ولادته وإن زعموا أنهم يستطيعون التنبؤ بمصيره على الأرض بعد ولادته ، وقال أرزم إن مثل هذه الطوائع حكايات يسردها الزوجات العجائز وكتب مرددا عنوان شيشرون وجهده قبل ذلك بأربعة عشر قرناً رسالة عن : « قراءة الغيب » في الرد على مزاعم العرافين ومفسرى الأحلام وأمثالهم . ولقد سلم وسط شكه في العلوم الخفية بصفة

عامة ، بأن بعض الأحداث يمكن أن تفسر بأنها من عمل الشياطين أو الملائكة . وقبل فكرة « عين الحسود » : وظن أن المجرم يعتم المرآة بنظره فيها . وأن نظرة الوشق (١) قد تحترق الحائط . واعترف بالمعجزات التي في الكتاب المقدس ، ولكنه رفض التفسيرات الخارقة إذا كانت العالم الطبيعية تكفي للتفسير وقال نيقولا : إن كثيرين من الناس يصدقون السحر لأنهم يفتقرون إلى معرفة العلل والتطورات الطبيعية . وهم يقبلون بالسمع ما لم يروه ، ولذلك قد تصبح أسطورة - مثل ساحر يتسلق جبلا ألقى به في الهواء - عقيدة شائعة (وهذه هي أول رواية تذكر فيها أسطورة تسلق الجبل) واحتج أرزم تبعاً لذلك بأن انتشار عقيدة ما ليس دليلاً على صدقها بل إذا شاهد كثير من الناس حادثة تناقض تجربتنا العادية للطبيعة فيجب أن ترد في تصديقهم . يضاف إلى ذلك أن الحواس من السهل خداعها فإن ألوان الأجسام وأشكالها وأصواتها تختلف تبعاً لمسافة أعضاء الحواس وأضوائها وحالاتها ، والجسم وهو ساكن قد يبدو متحركاً ، والمتحرك قد يبدو ساكناً ، وتبدو قطعة النقود الموضوعة في قاع قنينة مملوءة بالماء ، أبعد منها في قنينة فارغة . ويجب أن تفسر الأحاسيس بالفعل ، وهذا أيضاً عرضة للخطأ ويقول أرزم ، إن خدع الحواس والفعل تفسر كثيراً من الأعاجيب التي تنسب إلى القوى الخارقة أو السحرية .

وعلى الرغم من هذا التقدم الجريء نحو الروح العالمة ، فإن الخرافات القديمة بقيت أو عدلت أشكالها فحسب . ولم تكن مقصورة على الدهماء . فقد دفع إدوارد الثالث ملك إنجلترا مبلغاً باهظاً من المال للحصول على قارورة ، كان على يقين من أنها من مخلفات القديس بطرس وعرضت على شارل الخامس ملك فرنسا في سانت شابلن ، قارورة ، قيل إنها تحوى بعض

(١) الوشق : حيوان أصغر من الفهد قصير الذيل .

دم المسيح وسأل حكماءه. وعلماء الدين عنده عن صحتها ، فردوا متحفظين بالإيجاب . وفي هذا الجو جاهدت التربية والعلم والطب والفلسفة لتنمو .

٢ - المعلمون

إن نهضة التجارة والصناعة قد أضفت أهمية جديدة على التعليم . وإذا كانت معرفة القراءة والكتابة تعد ترفاً غالى الثمن في نظام زراعى فإنها تعتبر ضرورة لا غنى عنها في عالم المدينة الذى تغلبت التجارة عليه . وقد أقر القانون أخيراً هذا التجول ، ذلك أن ملاك الأرض الإقطاعيين في إنجلترا التمسوا عام ١٣٩١ من ريتشارد الثانى تأييد القانون القديم الذى يحرم على رقيق الأرض أن يرسل ابنه إلى مدرسة دون أن يحصل على موافقة سيده ويقضى بتعويض المالك عن العجز في الأيدي العاملة بالمرزعة . ورفض ريتشارد هذا الالتماس ، أما في عهد خلفه فقد صدر قانون يسمح لأى رجل بأن يرسل من يشاء من أولاده إلى المدرسة . وفي ظل هذا القانون الذى أطلق حرية التعليم تضاعف عدد المدارس الأولية في حين بقيت في الريف المدارس التى يشرف عليها الرهبان . أما في المدن فإن الكنائس والمستشفيات والبيع والطوائف الحرفية كانت تمول المدارس الكبيرة وكان الالتحاق بها اختيارياً بعد أنه شاع حتى في القرى .

وكان المعلمون في العادة من القسس ولكن نسبة المعلمين من غير رجال الدين ارتفعت في القرن الرابع عشر . وكان برنامج الدراسة يركز على الوعظ : والعقيدة الدينية والصلوات الأساسية والقراءة والكتابة والحساب والغناء والجلد بالسياط ، ولقد كان هذا الجلد بالسياط عماد التعليم حتى في المدارس الثانوية وفسر أحد رجال الدين ذلك بقوله : « يجب قمع أرواح الأولاد » . وسلم معه الآباء بذلك وربما كان الأمر على هذا النحو . ولقد حثت أجنس باستون مربى ابنها الخامل قائلة : « اجلده ، إذا لم ينصح حاله : فأنا أوشى أن يدفن حياً على أن أراه يضيع بسبب الإهمال » .

تابعت المدارس الثانوية سياسة التربية الدينية وأضافت إليها قواعد اللغة وكانت لا تشمل النحو والصرف والإنشاء فحسب ، بل كانت تشمل اللغة أيضاً كما أنها هذبت أدب روما الكلاسيكى وتعلم الطلبة من أبناء الطبقة المتوسطة قراءة اللاتينية وكتابتها وإن كان هذا قد حدث بلا اكتراث وذلك باعتبارها من الضروريات للأشتغال بالتجارة الخارجية والعمل بالكنيسة . وكانت أحسن المدارس الثانوية إبان ذلك العهد تلك التى أنشأها فى هولندا وألمانيا إخوان « الحياة المشتركة » وكان بمدرسة ديفنتر ألفا طالب . وكان لويليام الأوكهامى ، أسقف ونشستر الثرى المقدام فضل السبق فى إنشاء أولى المدارس العامة فى إنجلترا وهى معاهد تعتمد على الإعانات التى تتلقاها من الأفراد والهيئات العامة لتزود عدداً محدوداً من الأولاد بالمعلومات وتعدهم للالتحاق بالكلية . وحذا هنرى السادس حذوه فأسس عام ١٤٤٠ مدرسة ايتون ومُنحت الكثير من المال لإعداد الكبار وللالتحاق بكلية الملك بكمبردج .

وكان تعاليم النساء ، اللهم إلا بعض كريمات العقائل ، مقصوراً على البيت بعد المرحلة الابتدائية . وتعلم كثير من نساء الطبقة الوسطى مثل مارجرىت باستون كتابة الإنجليزية السليمة وألم بضع نفر من النساء بالأدب والفلسفة . أما أبناء الطبقة الأرستقراطية فقد تلقوا تعليماً مختلف عما يلقن فى المدارس إذ كانوا حتى سن السابعة يدرسون على يد نساء البيت ثم يرسلون للعمل كوصفاء عند نبيل من الأقرباء أو الجيران وهناك بعيداً عن التأثير بالإفراط فى المحبة يتعلمون القراءة والكتابة والدين وقواعد السلوك من السيدات والقس المحلى وفى سن الرابعة عشر يصبحون تابعين أى خدما كبارا لسيدهم . وفى ذلك الوقت يكونون قد تعلموا ركوب الخيل والرماية والصيد والمقارعة والقتال . أما سعة الاطلاع فقد تركوها لأتباعهم .

وفى غضون ذلك كانت هذه تطور تراثاً من أعظم ما ورثوه من العصور الوسطى وهو - الجامعات - وفى الوقت الذى خمد فيه أوار الحماسة

للعماراة الكنسية اشتدت حدة الحامسة لإنشاء الكليات وفي هذه الفترة شهدت أكسفورد إنشاء كليتي أكستر وأورييل وكلية الملك والكلية الجديدة وكليات لنكولن وأول سولز وماجدالين وبراسينوز وكليات الجسد الطاهر ومدرسة اللاهوت . ولم تكن عندئذ كليات بالمعنى الحديث للكلمة بل كانت قاعات ، أو أماكن يقيم فيها عدد مختار من الطلبة وكان يعيش فيها أو يكاد عشر الطلبة في أكسفورد وكان رجال الدين يدرسون معظم المواد بالجامعة في فصول دراسية أو في قاعات للمحاضرات متناثرة في أنحاء المدينة . وتمسك الرهبان البندكتيون والفرنسيسكان والدومينيكان وغيرهم من طوائف الرهبان بكلياتهم المعهودة في أكسفورد وتخرج من هذه الكليات الملحمة بالأديرة نفر من ألع الرجال في القرن الرابع عشر ، من بينهم دونز سكوتوس وويليام الأوكهامي وكلاهما ألحق بعض الضرر بدراسة اللاهوت الأرثوذكسي وكان الدارسون للثمانون يتلقون تدريبهم في لندن ، في نخانات المحاكم وفي أكسفورد لم يكن هناك تعاطف بين سكان المدينة وبين الطلبة في الكليات - أي بين المواطنين وطلاب العلم ، فتمد حدث في عام ١٣٥٥ أن اندفع المعسكران المتعاديان إلى حرب مكشوفة وقتل كثير من الأبطال حتى عرف هذا العام باسم عام « المذبحة الكبرى » .

وعلى الرغم من إدخال عقوبة الجلد بالسياط في جامعات إنجلترا (عام ١٣٥٠) فإن الطلبة كانوا فئة مشاغبة وإذا كان قد حرم عليهم ممارسة الألعاب الرياضية داخل جدران كلياتهم فإنهم عددوا نشاطهم في المحون واحتساء الخمر والصيد والتمنص وكانت الحانات والمواخير تلقى رواجاً بفضل رعايتهم . وانخفض عدد الملتحقين باكسفورد من ذروته في القرن الثالث عشر إلى نحو ألف وبعد طرد ويكليف تقلصت الحرية الأكاديمية بشدة الرقابة الأسقفية .

ولقد أفادت كمبردج من الخلاف مع ويكليف ومن الفرع من اللولارد

فمنع المحافظون المتزمتون أولادهم من الالتحاق باكسفورد وبعثوا بهم إلى الجامعة الصغرى ، وعلى هذا فإنه ما أن أشرف القرن الخامس عشر على الانتهاء حتى كان عدد الطلبة المقيدين بالجامعتين المتنافستين متساويا . وأنشئت قاعات جديدة في كامبردج : مايكل هاوس ويونيفرسيتي أوكاير وجبروك وجونفيل وكايوس وترينتي وكوريس كرسيتي وكهجز وكويده وسانت كاترين وجيروس وكريست وسانت جون . وقد أصبحت هذه كليات بالمعنى المفهوم عندنا - مثل قاعات الإقامة في أكسفورد إبان القرن الخامس عشر لأن عدداً متزايداً من المعلمين آثروها ورأوا أنها أصلح الأماكن التي تجتذب محاضراتهم فيها أكبر عدد من المستمعين وكانت الفصول تبدأ في الساعة السادسة صباحاً وتستمر حتى الساعة الخامسة بعد الظهر .

وفي غضون ذلك أنشأت اسكتلندا وأيرلندا بدافع من فقرهما جامعات سانت اندروز وجلاسجو وأبردين وكلية ترينتي والمعاهد الأربعة في دبلن التي شاعت الأقدار أن تصب العبقرية ، جيلاً بعد جيل ، في الحياة الفكرية في الجزر البريطانية ، أما في فرنسا فقد عانى التعليم - مثل أي شيء آخر - من حرب المائة عام ومع ذلك فإن الإقبال المتزايد على المحامين والأطباء بالإضافة إلى ما يحبب الناس في الوظيفة الدينية قد شجع على إنشاء جامعات جديدة في أفنيون Avignon وأورليانز وكاهور وجرينوبل وأورانج واكس آن بروفانس وبواتيه وكان وبوردو وفالانس نانت وبورج . وأصبحت جامعة باريس في القرن الرابع عشر قوة وطنية تتحدى البرلمان وتزجي النصيح للملك وتعمل كمحكمة استئناف في شرح علم اللاهوت الفرنسي واعترف معظم المشتغلين بالتعليم في القارة الأوروبية بأنها جامعة « كون الأكوان » Universitas universitatis ، ولعل هذا يرجع إلى أن الملكية كانت توشك على الانهيار . وأدى ارتفاع شأن الجامعات الإقليمية والأجنبية إلى قلة عدد الطلبة المقيدين في جامعة باريس بل إن كلية الآداب وحدها اشتهرت بأها

تضم ألف مدرس وعشرة آلاف طالب في عام ١٤٠٦ ، وكان بالجامعة كلها عام ١٤٩٠ ما يقرب من عشرين ألفاً . عاوت على إيوائهم نحو خمسين كلية . وكان النظام هناك أقل صرامة عما هم عليه في أكسفورد والأخلاق التي تمتدح في الطلبة قد آثرت رجولتهم لا دينهم . وأضيفت إلى المنهج الدراسي برامج في اللغات الإغريقية والكلدية والعبرية .

وأنشأت أسبانيا جامعاتها الرائدة في القرن الثالث عشر في بالانسيا وسلمنقة ولاردة وارتفع شأن جامعات أخرى في برايبجنان ووشقة وبلد الوليد وبرشلونة وسرقسطة وبالما وسيجونرا وبلنسية والقلعة وإشبيلية . وخضعت هذه المعاهد لرقابة دينية صارمة وكان لعلم اللاهوت المقام الأول فيها . ومهما يكن من أمر ، فقد خصص في جامعة القلعة أربعة عشر كرسيًا (أستاذية) لعلم النحو والصرف والأدب والبلاغة واثنا عشر كرسيًا لللاهوت والقانون الكنسي ، وظلت جامعة القلعة فترة ما أعظم مركز تعليمي في أسبانيا ، وفي عام ١٥٢٥ كان عدد الطلبة المقيدين بها سبعة آلاف . وقدمت المنح للطلبة المعوزين وكان ويتحكم في مرتب الأستاذ عدد طلابه . وكان يطلب من كل أستاذ أن يستقيل كل أربع سنوات ولا يكون صالحاً للتعين من جديد إلا إذا كان عمله مرضياً . وفي لشبونة وفي عام ١٣٠٠ أنشأ الملك دينيز جامعة ولكن شغب الطلبة جعله ينقلها إلى كويمبرا ولا تزال هذه الجامعة من مفاخرها حتى اليوم .

وكانت الحركة الفكرية في هذه الفترة بأوروبا الوسطى أقوى منها في فرنسا أو أسبانيا ، فقد أنشأ شارل الرابع عام ١٣٤٧ جامعة براغ التي سرعان ما تزعمت الحركة الفكرية لشعب بوهيميا وغدت لسانها الناطق . وظهرت جامعات أخرى في كراكو وفينا وبيكس وجنيف وارفورت وهايدلبرج وكولونيا وبودا ، وفورتسبرج وليبتسيج وروستوك ولوفين وترير وفرايبورج - أم - برايسجاو وجريفسفالد وبازيل وانبولشتادت وبرسبورج وماينز

وتوبنجن وكوبنهاجن وأوبسالا وفرانكفورت - آن - أودر وفيتنبرج .
وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر كانت هذه المعاهد تعج بأفواج
الطلاب والمناظرات . وكان في كراكو وحدها ١٨٣٣٨ تلميذاً في آن واحد
وكانت الكنيسة تقدم معظم المال ومن الطبيعي أن يطلق عليها لحن الفكر ،
ولكن الأمراء والنبلاء والمدن ورجال الأعمال أسهموا في التبرع للكتليات
وتقديم المنح الدراسية . فقد زود الأمير فريدريك صاحب ساكسونيا
جامعة فيتنبرج جزئياً بالمال المحصل من بيع صكوك الغفران والذي رفض
أن يرسله إلى روما . وأنشئت لفلسفة الكلام كراسى أستاذية في الفلسفة
بينما ارتقى شأن العلوم الإنسانية خارج أسوار الجامعة ولذلك انضمت معظم
جامعات ألمانيا إلى الكنيسة إبان عهد الإصلاح الديني باستثناء جامعتين
مهمتين : ارفورت التي درس فيها لوثر وفيتنبرج التي كان يدرس بها .

العلماء

كان المزاج العلمي لا يكاد يشيع بين جهاينة العلماء أكثر مما يشيع
بين عامة الناس . وكانت روح العصر تميل إلى « الإنسانية » بل إن
حركة إحياء الدراسات الإغريقية تجاهلت علم الإغريق . وفي مجال الرياضيات
وقفت الأرقام الرومانية حجر عثرة في سبيل التقدم ، وبدأ أنها لا تنفصل
عن الثقافة اللاتينية ثم إن الأرقام الهندية العربية ظهرت وكأنها بدعة إسلامية
وقوبلت بعدم اكتراث وبخاصة شمال الألب . وقد استخدم ديوان المحاسبة
وإدارة حسابات الحكومة الفرنسية الأرقام الرومانية السميحة حتى القرن
الثامن عشر . ومع ذلك فإن توماس برادواردين الذي مات بوباء الطاعون عام
١٣٤٩ بعد مرور شهر من تكريسه كبيراً لأساقفة كنتربري - أدخل إلى
انجلترا عدة نظريات عربية في حساب المثلثات وكان تلميذه ريتشارد
والنجفورد رئيس دير سانت ألبان عالماً رائداً من علماء الرياضيات في القرن
الرابع عشر . وكتابه « الجزء الرابع من شرح الجيب » أول مؤلف كبير في

حساب المثلاث في أوربا الغربية ، وقد مات بالحدام في الثالثة والأربعين وهو يأسف على الوقت الذي اختلسه من اللاهوت للعلم .

وكان نيكول أريزم من أنشط رجال الدين ومع ذلك فإنه اقتحم بنجاح مجال اثني عشر علما ومهد الطريق إلى الهندسة التحليلية بتطوير الاستخدام المنهجي للأحداثيات وباستعمال الخطوط البيانية لإيضاح زيادة الدالة . وقد لعب بفكرة البعد الرابع ولكنه نبذها . وهو مثل الكثيرين من معاصريه أشار إلى قانون جاليليو الذي يقول إن سرعة الجسم الساقط تزايد بانتظام طوال الفترة التي يستغرقها في إسقوطه ، وفي تعليق على كتاب أرسطو ، كتب يقول : إننا لا نستطيع أن نثبت بأي تجربة أن السماء تتعرض لحركة يومية وأن الأرض لا تتعرض لها فثمة أسباب وجيهة تدل على أن الأرض وليست السماء تتعرض لحركة يومية . وقد لجأ أورزم إلى النظام البطليموسى وإن كان قد أعان على الإعداد لنظرية كوبرنيكوس .

وعندما نذكر أنه في ذلك الوقت لم يكن يوجد منظار مقرب ولا آلة تصوير ليرصد المرء بهما السماء أو يسجل ما يحدث فيها فإنه من الأمور المشجعة أن نسجل مقدرة وذكاء الفلكيين من المسلمين واليهود والمسيحيين في العصور الوسطى . وقد وصف جان دي لينيه ، بعد سنوات من مشاهداته الشخصية ، أوضاع ثمان وأربعين نجما بدقة لا يضارعه فيها سوى المسلمين وحسب ميل دائرة البروج في حدود سبع ثوان عن أحدث تقدير . وعرض جان دي مير وفيرين دي بوفال (١٣٤٤) إصلاح التقويم اليولياني الذي كان يسبق الشمس - بحذف اليوم التاسع والعشرين من فبراير كل أربعة أعوام خلال الأربعين سنة التالية (التي كان يمكن أن تخطئ بالزيادة) . وقد رُفد لهذا الإصلاح أن ينتظر حتى عام ١٥٨٢ ولا يزال في انتظار تفاهم دولي وإخلاص متبادل .

ولقد خلاص ويليام ميرل علم الرصد الجوى من علم الفلك بتسجيل
الشمس خلال ٢٥٥٦ يوما . واكتشف راصدون وملاحون مجهولون خلال
القرن الخامس عشر انحراف الإبرة المغناطيسية : فهي لا تشير إلى الشمال
تماما بل تميل نحو خط الزوال الفلكى بزاوية صغيرة وإن كانت مهمة وهي
كما لاحظ كولمبس تختلف من مكان إلى مكان . وأعظم شخصية بين علماء
الرياضيات والفلك في هذا العهد جوهان مولر المعروف في التاريخ باسم
رجيو مونتانيوس منذ مولده عام ١٤٣٩ قرب كنيجزبرج في فرانكونيا
السفلى . وقد التحق في الرابعة عشر بجامعة فيينا حيث كان جورج فون
بورباخ يتقدم الإنسانيات وآخر ما وصل إليه الإيطاليون في الرياضة والفلك
وكلا الرجلين بلغ سن النضوج مبكراً ومات في سن غضة : فمات بورباخ
في الثامنة والثلاثين ومولر في الأربعين . وصمم مولر على أن يتعلم اليونانية
لكي يقرأ كتاب : « المجسطى » في الفلك لبطليموس بلغته الأصلية فذهب
إلى إيطاليا ودرس اليونانية على يد جوارينو دي فيرونا واتهم كل النصوص
التي وقعت في يده سواء كانت باليونانية أو باللاتينية عن الفلك والرياضيات
ثم عاد إلى فيينا وهناك قام بتدريس هذه العلوم بنجاح حتى لقد استدعاه
ماتياس كورفينوس إلى بودا ثم انطلق إلى نورمبرج حيث بنى له أحد أغنياء
الطبقة المتوسطة أول مرصد أوروبى وجهزه مولر بآلات أقامها أو حسنها
بنفسه . وإنا لنحس بنسيم العلم النقى في خطاب كتبه إلى زميل له من علماء
الرياضة عام ١٤٦٤ : « لست أدري متى يتوقف قلمي . إنه سوف
يستهلك كل أوراقى إذا لم أتوقف عن الكتابة . إن المسائل تخطر لى واحدة
إثر الأخرى وكثير منها جميل بحيث أتردد أيها أضع بين يديك » . وفى
سنة ١٤٧٥ استدعاه سكستوس الرابع إلى روما لإصلاح التقويم وهناك مات
جيو مونتانيوس بعد عام .

وقد حدث حياته القصيرة من منجزاته . ووضع تخطيطا لمؤلفات فى
الرياضيات والطبيعة والتنجيم والفلك، وكان يأمل أن يشرف على نشر القديم

من تلك العلوم . ولم تجد طريقها للوجود والبقاء إلا شذرات من هذه الأعمال وقد أكمل خلاصة « المجسطية » لبورباخ وألف مقالا بعنوان « في المثلثات » De triangulis ، وهو أول كتاب خصص لحساب المثلثات وحده . ويبدو أنه كان أول من رأى استخدام المماسات في الحسابات الفلكية وسهلت جداوله عن جيوب الزوايا وظلالها الحسابات الفلكية لكوبرنيكوس . ووضع جداول فلكية تمتاز بدقة لا نظير لها في الجداول التي وضعت من قبل . وأثبتت طريقته في حساب درجات الطول والعرض أنها نعمة وبركة للملاحين .

وأصدر عام ١٤٧٤ تقويمًا بعنوان : « اليوميات » Ephemerides أوضح فيه الوضع اليومي للكواكب السيارة خلال الأعوام الاثنتين والثلاثين القادمة ومن هذا الكتاب تنبأ كولمبس بنحسوف القمر الذي سيملاً بطون رجاله الجرامع في اليوم التاسع والعشرين من شهر فبراير عام ١٥٠٤ .

وقد وضعت الملاحظات التي أبدأها ريجيومونتانوس ، عن مذنب هالي أسس علم الفلك الحديث الخاص بالمذنبات . ولكن تأثيره الشخصي في حياته كان أعظم من تأثير كتبه فقد ساعدت محاضراته المشهورة على إحداث إشراقة ذهنية في نورمبرج في شباب دورر وإليه يرجع الفضل في شهرة المدينة بآلاتها وخرائطها الملاحية . ولقد رسم أحد تلاميذه ، مارتن بهام بالألوان على الرق أقدم كرة أرضية معروفة عام ١٤٩٢ وهي لا تزال محفوظة في المتحف الألماني لنورمبرج .

ولا تدين الجغرافية الحديثة بوجودها للمتخصصين في هذا العلم بقدر ما تدين للبحارة والتجار والمبشرين والمبعوثين والجنود والحجاج . وقد استخدم ربابنة السفن الاسبان من قطالونيا خرائط ممتازة وكان دليل الربان لموانى البحر الأبيض المتوسط الذي كانوا يستخدمونه في القرن الرابع عشر لا يقل دقة عن خرائط الملاحة في عصرنا . ولما كانت الطرق التجارية للشرق قد

سقطت في أيدي الترك فقد طور المستوردون الأوروبيون طرقاً برية جديدة تخترق أراضي المغول وبعده أن قضى أوديريك أف بوردنون الراهب الفرنسيسكاني ثلاث سنوات في بكين (١٣٢٣ - ١٣٢٦ م) كتب تقريراً إيضاحياً عن رحلته إلى الصين عبر الهند وسومطره وعن رحلة عودته عبر التبت وإيران . وروى كلافيجو - كما سنرى - قصة خلافة عز بعثته إلى تيجور . وأما جوهان شنيتبرجر البافاري الذي أسره الأتراك في نيكوبوليس عام ١٣٩٦ فقد قام بجولة استغرقت ثلاثين عاماً في تركيا وأرمينيا وجورجيا وروسيا وسيبيريا وكتب في مؤلفه « كتاب النهضة » *Reisebuch* أول وصف لسبيريا لكاتب من غرب أوروبا . وفي سنة ١٥٠٠ نشر جوان دي لا كوزا أحد ربابنة سفن كولمبس خريطة متسعة للعالم توضح لأول مرة بالرسوم الجغرافية استكشافات سيده وفاسكو دي جاما وآخرين . كانت الجغرافية دراما متحركة في القرن الخامس عشر ومن أعظم الرسائل أثراً في الجغرافية بصفة خاصة « صورة العالم » *che Imago mundi* (١٤١٠) للكاردينال ببيردايلي وهي التي شجعت كولمبس على القيام برحلته بوصفها المحيط الأطلسي بأنه يمكن عبوره في بضعة أيام إذا كانت الريح موالية . وكان هذا الكتاب واحداً من ست مؤلفات كتبها هذا القسيس المجتهد في الفلك والجغرافية والأرصاد الجوية والرياضيات والمنطق وما وراء الطبيعة وعلم النفس وإصلاح التقويم والكنيسة . وعندما وجه إليه اللوم لتخصيصه وقتاً طويلاً كهذا للدراسات الدنيوية أجاب بأن على رجل الدين أن يطلع دائماً على العلم بل إنه كان يرى أن في التنجيم شيئاً من العلم وعلى أسس من التنجيم تنبأ بأن المسيحية سوف تتعرض لتغيير كبير في خلال مائة عام كما تنبأ بأحداث تهرز العالم في عام ١٧٨٩ .

وخير فكرة علمية في القرن الرابع عشر كانت في علم الطبيعة ويرجع الفضل إلى دبتريش أوف فرايبورج في أنه قدم لنا بالذات تفسيرنا الحديث

لقوس فزح وأنه يتكون نتيجة انكسارين وانعكاس واحد لأشعة الشمس من قطرات الماء . . . ولجان بوريدان مؤلف رائع في الطبيعة النظرية ومما يؤسف له أنه اشتهر بفضل حماره فحسب ولعله لم يكن صاحبه (١) . وقد ولد بوريدان قرب آراس قبل عام ١٣٠٠ وتلقى علومه ثم درس في جامعة باريس . وهو لم يعلل دوران الأرض اليومى حول الشمس فحسب بل إنه أسقط من علم الفلك المعارف الملائكية التي نسب إليها أرسطو وأكونياس مسار الأجرام السماوية وحركاتها وقال بوريدان : « لا حاجة بنا بعد اليوم إلى تفسير حركاتها أكثر من أنها بدأت تتحرك أصلا بإذن الله وبقانون قوة الدفع - أن أى جسم يتحرك يستمر في الحركة ما لم يمنعه قوة موجودة » . وهنا كان لبوريدان فضل سبق على جاليليو وديكارت ونيوتون . واستطرد قائلاً إن حركة النجوم تحكمها نفس القوانين الآلية التي تتحكم في الأرض . وهذه الآراء التي تعد الآن رثة بالية كان لها أثر عظيم في هدم آراء الناس في العصور الوسطى . وهي تكاد تؤرخ لبداية الطبيعة الفلكية .

ونقل تلاميذ بوريدان آراءه إلى ألمانيا وإيطاليا وتأثر بها ليونارد وكوبرنيكوس وبرونو وجاليليو ثم حملها ألبرت أمير ساكسونيا إلى الجامعة التي أنشأها في فيينا عام ١٣٦٤ ونقلها مارسيلوس فون انجهن إلى الجامعة التي أسسها في هيدلبرج عام ١٣٨٦ وكان ألبرت أول من نسب رأى أرسطو القائل أن الفراغ مستحيل ، وطور فكرة وجود مركز الجاذبية في

(١) لا توجد حكاية « حمار بوريدان » في أعماله الباقية ومع ذلك فهي رواية مأثورة عن عصر خليق بالاحترام . ولعلها وردت في إحدى محاضراته . وقد أثبت جان أن الإرادة عند ما تواجد الاختيار بين أمرين تجد لزاماً عليها أن تختار ما يرى للعقل أنه أكثر نفعاً . وعلى ذلك انتهى أحد الأذكياة إلى القول إنه لو وضع حمار جائع على بعدين متساويين من حزمتين من العلف ، شهيتين ومتساويتين فإنه لن يجد سبباً يدعو إلى تفضيل إحداهما على الأخرى ، وإذا لم يكن هناك طعام آخر فإنه قد يهلك جوعاً .

كل جسم وسبق مبادئ جاليليو عن التوازن في حالة السكون والعجلة المنتظمة للأجسام الساقطة وتمسك بأن تعرية الجبال بسبب الماء وارتفاع الأرض التدريجي أو بعوامل بركانية تعد قوى معوضة في الجيولوجيا - وهي فكرة خلقت لب ليوناردو .

وأحرز علم الميكانيكا العملية بعض التقدم المتواضع واستخدمت الطواحين الهوائية المعقدة لضخ الماء وصرفه من الأرض وطحن الغلال وللقيام بأعمال ومية أخرى . واستخدمت القوة المائية في الصهر والنشر وفي تشغيل منفاخ الفرن والمطارقة الميكانيكية وآلات غزل الحرير وكان المدفع يسبك ويثقب وكان الصلب يصنع بكميات كبيرة الحجم وأقيمت أفران الصهر العالية في أوروبا الشمالية إبان القرن الرابع عشر ونذكر الثاقب الحديد في سنة ١٣٧٣ وكان سحب الأسلاك يمارس في نورمبرج في القرن الخامس عشر ووردت صورة مضخة تتكون من دلاء مركبة على سلسلة لا نهاية لها في مخطوط عام ١٤٣٨ . وفي رسم للمهندس كونراد كيزر وهو من أتباع هس (١٤٠٥) توجد أقدم صورة معروفة للمحرك المترددة التي تتحول إلى حركة دوارة : ذراعان يتحركان على التعاقب ويديران في دقة اسطوانة بناها تدير المكابس عمود المحور لسيارة .

وكانت الحاجة ماسة إلى ميكانيكية أفضل لقياس الوقت لنمو حجم التجارة والصناعة : وقسم الرهبان والفلاحون النهار إلى عدد بعينه من الفترات في كل الفصول وجعلوا الفترات في فصل الصيف أطول منها في فصل الشتاء . وتطلبت الحياة في المدينة تقسيمات للوقت أكثر تجانساً فصنعت إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر ساعات حائط وساعات معصم يقسم فيها اليوم إلى أجزاء متساوية طوال العام . وفي بعض الأماكن كانت الساعات ترقم من واحد إلى أربع وعشرين كما يجري عليه العمل لضبط الوقت عند العسكريين في عصرنا . وفي أواخر عام ١٣٧٠ كانت

بعض الساعات الكبيرة مثل التي صنعت في سان جوتارد وفي ميلان تدق الرقم بأكمله . وقد ثبت أن هذا إسراف في الضجيج . وما أن حل عام ١٣٧٥ حتى كان اليوم مقسما بانتظام إلى نصفين كما منهما به اثنا عشرة ساعة .

وكانت القاعدة الأساسية في الساعة الآلية ثقلا يدير عجلة ببطء ويتحكم في دورانها ترس له أسنان مقاومته كافية بحيث تسمح للعجلة بأن تدور بمقدار سن واحدة في فترة معينة من الزمن . ولقد وضعت هذه الساعة التي تقيس الوقت حوالي عام ١٢٧١ . وأقيمت أول ساعات آلية كبيرة في أبراج للكنائس أو قباب يمكن رؤيتها من مساحات بعيدة في أي مدينة . ومن أوائل هذه الساعات ما ركب في دير سانت ألبانز على يد ريتشارد والنجفورد وكانت لاتبين الساعات والدقائق في اليوم فحسب بل كانت تبين أيضا الجزر والمد وحركات الشمس والقمر ، وأما الساعات التي صنعت فيما بعد فقد أضيف إليها مزيج من الأجهزة المبتكرة في الساعة الكبيرة في كاتدرائية ستراسبورج (١٣٥٢) وكان يظهر فيها ديك يصبح وثلاثة من الجوس وتمثال شخص موضح عليه الوقت المناسب لحجامة كل عضو من أعضاء الجسم ، وكانت ساعة الكاتدرائية في ولز تستخدم صورة متحركة للشمس تشير إلى الساعة ونجما صغيرا يتحرك على دائرة داخلية لبيان الدقيقة ودائرة ثالثة تبين أي يوم في الشهر وعلى منصة فوق المزولة أربعة من الفرسان يبرزون ويهاجمون كلما دقت الساعة وفي إحدى الساعات التي صنعت في القرن الخامس عشر في فيينا كانت هناك رأس مهرج يفتح فمه الهائل ليلتهم تفاحة ذهبية من أحد الحجاج ولكنه لا يكاد يطبق عليها فسه حتى تختطف منه وكانت هذه الملهاة تمثل كل ساعة من ساعات اليوم خلال مئات الأعوام ولا تزال هذه الساعة موجودة . وقد أقيمت عام ١٥٠٦

ساعة مماثلة في نورمبرج وأوقفها الحرب العالمية الثانية بجفاء عن العمل ثم استأنفت عروضها المسرحية في سنة ١٩٥٣ .

ولصنع الساعات الصغيرة استبدل بالثقل المعلق زنبرك حلزوني عام ١٤٥٠ شريط من الصلب الرقيق يلف على شكل حلقة صغيرة أو طارة وتحدث بفكها تدريجيا الأثر الذي يحدثه الثقل على العجلة البطيئة : وما أن أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى أصبحت الساعات الصغيرة متوفرة بعضها كبير في حجم الكف والبعض الآخر صغير في حجم اللوزة وكثير منها كان بيضى الشكل مثل « بيض نورمبرج » التي صنعها بيتر هيل (١٥١٠) وطبقت قاعدة الثقل والترس والعجلة لأغراض أخرى بحيث أصبحت الساعة الآلية سببا في صنع عشرات الآلاف من الآلات المتعددة .

وبينما كان علم الطبيعة بشيرا بالثورة الصناعة كانت الكيمياء القديمة تنمو ببطء في علم الكيمياء وفي نهاية هذا العصر كان الكيميائيون قد اكتشفوا ووصفوا الزنك والبرموت والكبريت الحى وحجر الأثمد (الأنديمون) والفورين القلوى الطيار ومواد أخرى كثيرة وقطروا الكحول وبخروا الزئبق وصنعوا حامض الكبريتيك بتسخين الكبريت وأعدوا الأثير والماء الملكي وصبغة قرمزية تفوق الصبغات التي تستعمل الآن وأورثوا علم الكيمياء الطريقة التجريبية التي أثبتت أنها أعظم ما وهبه علم العصور الوسطى للعقل الحديث .

وكان علم النبات لا يزال في الأغلب مقصورا على كتبات في الفلاحة أولا يعدو كتابا يصف أعشابا ونباتات طيبة . وكان من رأى هنرى أوف هيس (١٣٢٥ - ١٣٩٧) أن أنواعا جديدة . بخاصة بين النباتات . يمكن أن تتطور طبيعيا عن أنواع قديمة وكان هذا رأيه قبل داروين بخمسمائة عام . وليس من شك في أن إقامة معارض ملكية أو بابوية للوحوش

وتربية الحيوانات والطب البيطري وعجالات في القنص أو صيد السمك أو تربية النحل أو دود القز وحكايات خرافية أبطالها من الحيوانات تروى نصصا منها ما له مغزى أخلاقي وكتبا في فن رياضة الصقور مثل كتاب رآة فيبوس (١٣٨٧) من تأليف جاستون الثالث كونت أوف فو ، قد جمعت بلا قصد مادة لعلم الحيوان .

وكان لا بد للتشريح والفسولوجيا (علم وظائف الأعضاء) من الاعتماد على تشريح الحشرات وعلى إصابات الجنود والحالات العرضية التي يحتم فيها القانون إجراء تشريح لمعرفة سبب الوفاة . وكان المسيحيون المؤمنون يحسون بأنهم على حق في الاعتراض على تشريح جثث الآدميين فالمفروض أنهم على الرغم من وفاتهم سيبعثون من القبور وأبدانهم سليمة يوم الحساب ، وكان من الصعب الحصول على جثث لدراسة التشريح خلال القرن الرابع عشر وأتيح لعدد قليل جداً من الأطباء شمال الألب قبل عام ١٤٥٠ رؤية جثة بشرية بعد تشريحها ومع ذلك فإن جى دى شولياك أقنع السلطات في أفنيون عام ١٣٦٠ بأن تحول لمدارس الطب جثث المجرمين الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام لإجراء تشريح لها . وكانت عمليات التشريح تتم أمام طلبة الطب في البندقية عام ١٣٦٨ وفي مونبلييه عام ١٣٧٧ وفي فلورنسا عام ١٣٨٨ و لاردة عام ١٣٩١ وفي فيينا عام ١٤٠٤ . وشيدت جامعة بادوا عام ١٤٤٥ أول مشرحة معروفة وكانت النتائج لانهاية لها في عالم الطب .

٤ - المعالجون

كانت أوروبا الشمالية متخلفة بنصف قرن أو أكثر عن إيطاليا في علم الطب وممارسته شأنها في ذلك شأن الأدب والفن بل إن إيطاليا لما تصل ثانية عام ١٣٠٠ إلى ما وصل إليه جالينوس وسورانوس في الطب قبل ذلك بألف

عام ، ولكن مدارس الطب في مونتبلية وباريس و اسفورد أحرزت تقدماً لا بأس به ، وكان أعظم الجراحين في هذا العصر من الفرنسيين . وكانت المهنة وقتئذ منظمة تماماً وتدافع بشدة عن امتيازاتها ولكن لما كان الطلب على العلاج يزيد كثيرا عن عدد الأطباء فإن تجار الأعشاب الطبية وبائعي العقاقير والقابلات والأطباء المتجولين والحلاقين والجراحين - ولا ضرورة لذكر أدعياء الطب - ناصوا في كل مكان الأطباء المتمرسين . وأما الجمهور الذي كان يصاب بالمرض بسبب المعيشة الخاطئة ثم يبحث عن تشخيص لا يخطئ وعلاج رخيص يتم به الشفاء في لينة واحدة فقد كان يجأ بالشكاوى المعتادة من الأطباء المترتبة والسفاحين ورأى فرواسار أن « هدف كل رجال الطب أن يحصلوا على مرتبات كبيرة » وكان هذا لم يكن مرضاً متوطنا بالنسبة كل الحضارات .

وكان أهم رجال الطب إبان هذا العصر الجراحين ولم يكونوا قد أقنعوا بعد الأطباء بالاعتراف بهم على قدم المساواة ، والحق أن جامعة باريس كانت لا تقبل طالبا في مدرسة الطب في القرن الرابع عشر إلا بعد أن يقسم أنه لن يجرى أية عملية جراحية . بل إن الحجامة التي أصبحت علاجاً لكل الأمراض حرمت على الأطباء وكانت تترك لتابعيهم . ولجأ الناس إلى الحلاقين لإجراء عمليات كثيرة إلا أن الحلاقين الجراحين كانوا إبان ذلك الوقت يهجرون ممارسة الحلاقة ويتخصصون في الجراحة ، وكان هناك أربعون من هؤلاء الحلاقين في باريس عام ١٣٦٥ ، وفي إنجلترا استمروا يزاولون المهنة حتى عام ١٥٤٠ . وصدر عام ١٣٧٢ قانون قصر عملهم في فرنسا على علاج « الجروح التي ليس من شأنها أن تسبب الوفاة » ولذلك فإن العمليات الكبيرة لا يمكن أن يجريها قانونا إلا « أساتذة الجراحة » الإخصائيون ، وصدر عام ١٥٠٥ مرسوم بإنشاء كلية ملكية للجراحين في أدنبرة .

وأعظم المتخصصين في الجراحة في النصف الأول من القرن الرابع عشر هم هنري دي موندفيل وجي دي شولياك ولعل فرواسار سجل أن موندفيل ظل فقيراً حتى آخر يوم في حياته على الرغم من أن أعماله كانت دائماً في رواج وأنه قام بعمله على الرغم من إصابته بالربو والسل . وقد استوعب كتابه « الجراحة » Chirurgia (١٣٠٦ - ٢٠) وهو أول مؤلف في الجراحة لفرنسي ، الميدان كاه بإتقان وجدارة تبوأ بهما - الجراحون مكاناً مرموقاً وكان أعظم ما أسهم به تطبيق وتطوير طريقة تعلمها من تيودوريك بوجونيوني في بولونيا لعلاج الجروح بالتطهير الكامل ومنع التقيح وتسرب الهواء وعمل الضمادات بالنبيذ ، وقد دافع عن الطريقة التي ابتدعها بأن حذر من قبول رأي جالينوس أو غيره من الثقافات القديمة بلا مناقشة ، وكتب يقول مستخدماً صفة محبة في العصور الوسطى : « إن المؤلفين المعاصرين بالنسبة للقداي منهم يشبهون قزما يركب فوق كتف عملاق فهو يرى كل ما يراه العملاق بل ويرى أبعد منه » .

وقد أنجب الجيل الذي جاء بعده أشهر الجراحين في العصور الوسطى وهو جي دي شولياك وهو من أصل ريفي وولد في قرية ريفية أخذ منها اسمه ، وقد أثر في سادة القصر فجعلهم يتكفلون بنفقات تعليمه في تولوز ومونبلييه وبولونيا وباريس ، وفي عام ١٣٤٢ أصبح طبيباً خاصاً للبابا في أفنيون . واحتفظ بهذا المنصب الصعب الثمانية وعشرين عاماً وعندما اجتاح وباء الطاعون أفنيون لم يغادر موقعه ومد يد العون للضحايا وأصيب بالوباء ولم ينج من الموت إلا بمعجزة ، وقد ارتكب أخطاءاً جسيمة مثل أي إنسان إذ كان تارة يعزو انتشار الوباء إلى اقتران بين الكواكب في ساعة نحس وتارة يتهم اليهود بأنهم يهدفون إلى تسميم أبناء العالم المسيحي وأخر التثام الجروح بنبذه طريقة موندفيل في اللصقات والمراهم ولكنه عاش معظم حياته وفي الأرفع تقاليد مهنته العظيمة . ويعد مؤلفه Chirurgia magna (١٣٦٣)

الجامع في فن الجراحة» أكمل بحث في الجراحة وأكثر تنسيقاً وأغزر
أداة من الرسائل التي ألفت قبل القرن السادس عشر .

وواكبت الصحة الجماعية والفردية بصعوبة تقدم الطب فلم تكن النظافة
الشخصية شيئاً مقدساً بل إن ملك إنجلترا كان لا يستحم إلا مرة واحدة
كل أسبوع وكان يغفل الاستحمام أحياناً . . . وكان الألمان يستخدمون
حمامات عامة - أحواضاً واسعة يقف فيها المستحمون أو يجلسون عراة
الأجسام وأحياناً يستحم فيها الجنسان معاً . وكان في أولم وحدها ١٦٨ حماماً
عاماً ١٤٨٩ وفي كل أنحاء أوروبا - دون استثناء للطبقة الأرستقراطية دائماً -
كانت نفس القطعة من الملابس ترتدى شهوراً أو سنوات أو أجيالاً .

وكان في كثير من المدن ما يكفيها من الماء ولكنه كان لا يصل إلا إلى
بضع منازل وكان على معظم الأسر أن يجلبوا الماء من أقرب نافورة أو بئر
أو ينبوع . وظل هواء لندن ملوثاً برائحة الماشية المذبوحة إلى أن حرمت هذه
المذبحة عام ١٣٧١ وكانت المراحيض تنغص حياة الناس السهلة في الريف .
ولم يكن في منازل لندن إلا مرحاض واحد لكل السكان وخلا كثير من
أى مرحاض وكانت تفرغ ما فيها من براز في الأفنية أو الطرقات . وكانت
٦ لاف الفضلات تلقى في نهر التيمز وقد صدر عام ١٣٥٧ قانون يحرم
ذلك وإن استمر الحال على ما هو عليه وفي سنة ١٣٨٨ أقر البرلمان أول
قانون للصحة العامة يسرى في جميع أنحاء إنجلترا وقد دفعه إلى هذا انتشار
الوباء أكثر من مرة « نظراً لأن كثيراً من الغائط والنفايات القذرة والأمعاء
والذبائح والمواد المتعفنة الأخرى تلقى وتوضع في الحفر والأنهار والمياه
الأخرى . . . ونظراً لأن الهواء يتلوث ويفسد إلى حد كبير فتنتشر كل
يوم أمراض كثيرة وأسقام أخرى لا تطابق بين السكان وبين الآخرين
ممن يترددون أو يسافرون إلى هناك فقد تم الاتفاق والرضى على نشر

هذا الاعلان - في أنحاء مملكة إنجلترا . . . إن جميع من يلقون ويضعون مثل هذه الأشياء المقلقة للراحة سيجبرون على إزالتها تماماً . . . وإلا تعرضوا لعقوبة الغرامة من مولانا الملك » .

وقد صدرت قوانين مماثلة في فرنسا في مثل هذا الوقت وفي سنة ١٣٨٣ أمرت السلطات في مارسيليا ، مقتفية أثر سلطات راجوزا (١٣٧٧) بعزل الأشخاص المصابين بالوباء لمدة أربعين يوماً - بالحجر الصحي . واستمرت الأوبئة في الانتشار - الحمى الدخنية في إنجلترا (١٤٨٦ - ١٥٠٨) ومرض الخناق والجدري في ألمانيا (١٤٩٢) - إلا أن العدوى بها قد تضاءلت وقلت الوفيات . وعلى الرغم من التهاون في الرعاية الصحية فإن المستشفيات كانت كثيرة نسبياً فقد كان في إنجلترا ٤٦٠ مستشفى عام ١٥٠٠ وكان في يورك وحدها ستة عشر مستشفى .

وتجاوز علاج المجانين شيئاً فشيئاً مرحلة احترام الخرافات والأوهام والتسوية الهمجية إلى مرحلة العلاج العلمي ، فقد حدث عام ١٣٠٠ أن نبشت جثة فتاة ادعت أنها الشبح المقدس وأحرقت بأمر من رجال الدين ، واتميت فتاتان عبرتا عن إيمانهما بما ادعته ، مصرعهما بالجلوس على الخوازيق وفي سنة ١٣٥٩ فوض كبير أساقفة طليطلة السلطات المدنية في إحراق إسباني حياً وكان قد ادعى أنه أخ ميكائيل كبير الملائكة وأنه يتردد على السماء والصحيم كل يوم .

رتحسنت الأمور في القرن الخامس عشر إذ أن راهبا يدعى جان جوفر ، امتلاً قلبه عطفاً على المجانين الذين كانت الغوغاء تتابعهم في الشوارع بصفير الاستهزاء أنشأ مستشفى للمجانين (١٤٠٩) وحذت السلطات حذوه في مدن أخرى وتحولت مستشفى سانت ماري أوف بيت لحم التي أسست في لندن عام ١٢٤٧ ، إلى مستشفى للمجانين عام ١٤٩٢ وأصبحت

كلمة « بيت لحم » التي حُرِّفت إلى كلمة « بدلام » - مرادفة لمستشفى المجانين .
وكان الذين يثبت إصابتهم بالجذام منبوذين من المجتمع وإن كان الجذام
قد اختفى أو كاد من أوروبا الغربية في القرن الخامس عشر وحل محله مرض
الزهري ، ولعله مرحلة متطورة لمرض الزهري المعروف من قبل في فرنسا وربما
كان مرضا وافدا من أمريكا وظهر أخيرا في إسبانيا عام ١٤٩٣ وفي إيطاليا
عام ١٤٩٥ ثم انتشر انتشارا واسعا في فرنسا حتى أطلق عليه اسم الوباء الغالي (١).
وقد اجتاحت بعض المدن في ألمانيا فالتست إعفاءها من الضرائب - وما
أن أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى سمعنا عن استخدام الزئبق في
علاجه . وأخذ تقدم الطب في ذلك الوقت كما هو الآن يسابق بشجاعة كل
مستحدث في المرض .

٥ - الفلاسفة

على الرغم من أن عصر واضعي النسق قد انقضى فإن الفلسفة كانت
لا تزال في أوج قوتها والحق أنها زعزعت أركان العقيدة المسيحية في القرن
الرابع عشر . وانتشر تذبذب علماء اللاهوت في الفلسفة بفضل تحول في
الرأي : فقد اهتم قادة الفكر مثل بوريدان بالعلم اهتماما كبيرا وبالاقتصاديات
مثل أريزم وبالنظام الكنسي مثل نيكولاس الكوزي وبالسياسية مثل بيير
ديبوا ومارسيلوس البادوي . وكان هؤلاء الرجال أندادا في الفكر لالبرتوس
ماجينوس وتوما الأكويني وسيجيردي باربان ودونس سكوتوس
وظلت فلسفة الكلام - كمنهج للجدل والعرض ومحاولة لإظهار ارتباط
العقل بالإيمان - تسود الجامعات في الشمال واعتبر الأكويني قديسا عام
١٣٢٣ وبعد ذلك أحس أتباعه من الدومينيكان وبخاصة في لوفين وكولونيا
أن من دواعي الشرف أن يتمسكوا بعقيدة في مواجهة كل التحديات .

(١) نسبة إلى بلاد الغال .

أما معارضوه من الفرنسيسكان الثابتين على العهد فقد آثروا أن يتبعوا أوجستين ودونس سكوتوس . وصدم ويليام ديراند من سان بورسان ، وهو أحد الرهبان الدومينيكان المتحررين ، طائفته عندما انخرط بين أتباع سكوتوس وعندما بلغ الثامنة والثلاثين (عام ١٣٠٨) بدأ في كتابة حاشية مفصلة وفرغ منها في سن متقدمة . ولقد نبذ أثناء تقدمه آراء أرسطو والأكويني ورأى أن يغلب العقل على حجة كل عالم مهما كان حظه من الشهرة أو الخطر « وهنا كان فيلسوفا له نصيب من حاسة الفكاهة . وبينما ظل صراحة وفيا لآراء علماء اللاهوت فإنه مهد السبيل لأسمية أوكهام المتشددة وذلك باستعادة المذهب التصوري لأبيلاز : الأشياء الفردية فقط التي تبقى وكل الأفكار المجردة أو العامة ليست إلا أقرب التصورات للعقل . وأطلق أصدقاء وليام عليه اسم دكتور ريزوتوتيسيموس أما خصومه فأطلقوا عليه اسم دوروس دوراندوس - ديران الصاب - وكانوا يعللون أنفسهم بأن نيران جهنم سوف تلبين قناته في النهاية .

وكان ويليام الأوكهامي أشد صلابة ولكنه لم ينتظر حتى يلقي حتفه حرقا ، وقضى حياته بأسرها في جدل حاد ولم تخف حدته إلا بالسجن من آن لآخر وتحت ضغط الأيام Lieber عن حرارته في صيغة الفلسفة الكلامية ولم يسلم في الفلسفة إلا بسلطان التجربة والعقل . وكان يتحمس لنظرياته ويمسك بخناق نصف أوربا دفاعا عن آرائه . وهو بحياته ومغامراته وأهدافه يسبق إلى تمثيل فولتير ومغامراته وأهدافه . ولعله كان أعظم منه أثرا .

ولا نستطيع أن نقول أين أو متى ولد على وجه التحديد ، ولعله ولد في أوكهام بمقاطعة سوري حوالي نهاية القرن الثالث عشر . واندرج في سلك طائفة الفرنسيسكان وهو بعد صبي صغير وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره أرسل إلى جامعة اكسفورد باختباره صبيا ذكيا سيكون ولا ريب ضوء

مشرقاً في الكنيسة . وفي اكسفورد وربما في باريس ، أحس بتأثير راهب فرنسيسكاني آخر داهية هو دونس سكوتوس لأنه على الرغم من أنه عارض « واقعية » سكوتوس فإنه دفع بنقد سلفه التعقلي للفلسفة واللاهوت بضع خطوات نحو مذهب الشك الذي يذيب الفوارق بين العقائد الدينية والقوانين العلمية . وقام بالتدريس ست سنوات في اكسفورد وربما يكون قد درس في باريس . ويبدو أنه كتب تعليقات على فلسفة أرسطو وبيتر لومبارد قبل عام ١٣٢٤ - وهو لا يزال حدثاً في العشرين وأعظم أثر له هو كتاب « الجامع لكل علم المنطق Summa totius logicae » وهو موجز لكل قواعد المنطق .

ويبدو الأمر لأول وهلة صورة من صحراء جرداء في تقطيع أوصال المنطق والمصطلحات اللغوية التكنوأوجية ، موكب لا حياة فيه من التعريفات والتقسيمات والتفريعات والصفات المميزة والتصنيفات والمهارات . وعرف أوكهام كل شيء عن « علم المعاني » وأسف لعدم دقة الاصطلاحات المستعملة في الفلسفة وقضى نصف الوقت في محاولة توخي الدقة فيها أكثر من قبل . واستاء من الصرح القوطي للتجريدات يركب أحدها الآخر كالغقود في الطبقات الموضوعية إحداهما فوق الأخرى ، والتي أثارها الفكر في القرون الوسطى . ولا نستطيع أن نجد في أعماله الباقية بالدقة الصيغة المشهورة التي سميت في التراث باسم « مبضع أوكهام » الذاتية لا تتضاعف بحيث تتجاوز الحاجة . ولكنه عبر عن المبدأ بمصطلحات أخرى مراراً وتكراراً - التعددية (في الذاتية أو العلل أو العوامل) لا تثبت (أو تفترض) إلا لضرورة » و « من العبث أن نبحث عن إنجاز أو شرح بافتراض أو علة يمكن تفسيرها بأقل منها » ، ولم يكن المبدأ جديداً فقد قبله الأكويني واستخدمه سكوتوس ولكنه بين يدي أوكهام أصبح سلاحاً قاتلاً يقطع به مئات من الأوهام الغامضة والتجريدات العظيمة .

وبتطبيق المبدأ على نظرية المعرفة رأى أوكهام أنه لا داعى لأن يفترض كمصدر ومادة للمعرفة ، أى شىء أكثر من الإحساسات ومن هذه تنشأ الذاكرة (إحساس ينعش) والإدراك (إحساس يفسر من خلال الذاكرة) والخيال (ذاكرات متحدة) والتوقع (ذاكرة تنعكس) والفكرة (ذاكرات تقارن) والتجربة (ذاكرات تفسر من خلال الفكرة) .
« لا شىء يمكن أن يكون موضوعاً للحس الداخلى (الفكرة) إلا إذا كان موضوعاً للحس الخارجى (الشعور) » . وها هو الذى سب التجريبي للوك قبل ظهوره بثلاثمائة عام .

وكل ما ندركه خارج نفوسنا هو ذاتيات فردية - أشخاص معينين وأشياء وأفعال وأشكال وألوان وأذواق وروائح وضغوط ودرجات حرارة وأصوات ، والكلمات التى تعبر بها عن هذه هى « كلمات أول قصد » أو المراد الأولى وتشير مباشرة إلى ما نشرها على أنها حقائق خارجية ، وبتدوين وتجريد الملامح العامة للذاتيات المماثلة التى أدركت على هذا النحو يمكننا أن نصل إلى أفكار عامة أو مجردة - رجل ، فضيلة ، ارتفاع ، حلاوة ، حرارة ، فصاحة . والكلمات التى نعبر بها عن مثل هذه التجريدات هى كلمات « القصد الثانى » وتشير إلى المفاهيم المستخلصة من المدركات . وهذه « العموميات » لا تختبر فى الإحساس فهى تعبيرات ودلالات وأسماء لتعميمات نافعة للغاية (وخطرة) فى الفكر أو العقل وفى العلم والفلسفة واللاهوت ، وهى ليست أشياء توجد خارج العقل . وأن كل شىء خارج العقل مفرد ويساوى عددياً واحداً .

والعقل شىء رائع ولكن استنتاجاته لا تكون لها معنى إلا إذا كانت تشير إلى التجربة - أى إلى إدراك الذاتيات الفردية ، أو إلى أداء الأفعال الفردية وإلا فإن استنتاجاته تكون من قبيل العبث وقد تكون تجريدات خادعة وما أكثر اللغو قولاً وكتابة بإساءة فهم الأفكار على أنها أشياء

والتجريدات على أنها حقائق . إن الفكرة المجردة لا تقوم بوظيفتها إلا عندما تؤدي إلى بيانات معينة عن أشياء معينة .

ومن هذا المذهب الاسمي طرق أوكهام في تهور لا يبقى ولا يذر كل ميدان في الفلسفة واللاهوت . وأعلن أن كلا من الميتافيزيقيا والعلم تعميمات متعلقة لأن تجربتنا ليست إلا عن ذاتيات معينة في مساحة وزمن محصورين في نطاق ضيق ولذلك فإنه من الغرور أن نفترض على وجه الشمول والدوام صحة القضايا والقوانين الطبيعية التي نستمدّها من هذا القطاع الصغير من الحقيقة فتصاغ معرفتنا وتحدد بوسائلنا وطرقنا في إدراك الأمور (وهذا هو رأى كانت قبل ظهور كانت) وهي تبقى حبيسة في سجن عقولنا ويجب ألا يدعى أنها الحقيقة الموضوعية أو النهائية عن أى شيء .

أما بالنسبة للروح فإنها تجريد أيضاً وهي لا تظهر أبداً في إحساساتنا أو مدركاتنا سواء أكانت خارجية أم داخلية وكل ما ندركه هو الإرادة والذات (الأنا) التي تؤكد نفسها في كل فعل وكل فكرة . والعقل نفسه وكل مجد ينسب للذهن آلات للإرادة ، والذهن ليس الإرادة التفكير تبحث عن غاياتها بالفكر « وهذا هو رأى شوبنهاور » .

ويبدو أن الله نفسه لا يصمد أمام هذه الفلسفة الحادة . ولم يجد أوكهام (مثل كانت) أية قوة باقية في أى من المناظرات التي دارت لإثبات وجود الله . ورفض الأخذ برأى أرسطو القائل أن سلسلة الحركات أو العلل تجبرنا على أن نفترض الحركة الأولى أو العلة الأولى . ولم يعيد غير مدرك ردة لانهاية للحركات والأسباب أكثر من المحرك الثابت أو العلة التي لا سبب لها في لاهوت أرسطو ، ونظراً لأنه لا يمكن أن يعرف شيء إلا بطريق الإدراك المباشر فإنه لن يتيسر لنا الحصول على معرفة واضحة بأن الله موجود .

ولا يمكن للعقل أن يرى أن الله قادر على كل شيء أو لا حد لقدرته، وعالم بكل شيء أو لطيف أو واحد، كما أن العقل لا يستطيع أن يثبت أن الله ثالث ثلاثة، أو أن الله تجسد إنساناً ليكفر عن خطيئة آدم وحواء بعصيانهما أو أن ابن الله حاضر في القربان المقدس، ثم إن التوحيد ليس مطابقاً للعقل أكثر من الشرك، وربما يكون هناك أكثر من عالم يحكمها أكثر من إله.

إذن ماذا يبقى من البناء البهيم للعقيدة المسيحية؟ أساطيرها الحميلة وأناشيدها وفنها، ما نصت عليه من أخلاق من وحي الله أم أملها الحصين؟ وقد تراجع أوكهام أمام هدم العقل للاهوت وفي محاولة يائسة لإنقاذ نظام اجتماعي قائم على شريعة أخلاقية تقوم على عقيدة دفينية رأى التضحية بالعقل على مذبح الإيمان، وربما يكون الله موجوداً على الرغم من أنه لا يمكن إثبات هذا وأنه وهب كلا منا روحاً خالدة. ويجب أن نميز، كما أشار ابن رشد ودنس سكوتوس، بين الحقيقة اللاهوتية وبين الحقيقة الفلسفية، وأن نقبل متواضعين في مجال الإيمان ما يرتاب فيه العقل الفخور بنفسه.

وكان من قبيل المبالغة أن تقبل الكنيسة هذه الحاشية الذنبية التي تكرم العقل العملي كفارة للذنب أوكهام لقيامه بنقد العقل المحض. فأمر البابا جون الثاني والعشرين بتكوين مجلس تحقيق من رجال الدين للنظر في «الهرطقات البغيضة» التي اقترفها الراهب الشاب واستدعاه ليمثل أمام المحكمة البابوية في أفنيون، وجاء أوكهام، لأننا نجده عام ١٣٢٨ في سجن بابوي هناك، مع راهبين من الفرنسيسكان وفر الثلاثة وهربوا إلى إيجسمورتس واستقلوا قارباً صغيراً والتقطتهم سفينة أخذتهم إلى لويس ملك باقاربا في بيزا. وحرّمهم البابا من غفران الكنيسة بينما أسبغ عليهم الإمبراطور حمايته. واصطحب ويليام لويس إلى ميونخ وانضم هناك إلى مارسيلينوس من بادوا وعاش في دير فرنسيسكاني مناهض للبابا وأصدر منه سيلا من الكتب والنشرات ضد سلطان وهرطقة البابوات بعامة وجون الثاني والعشرين بخاصة.

وكما فاق أوكهام في ميتافيزيقياته الشكية عند سكوتس فإنه في نظريته العملية دفع مهاجمة مارسيلوس البادوى للإكليروس نتائج جريئة . وأعمل مبضعه في العقائد والشعائر التي أضافتها الكنيسة إلى المسيحية الأولى وطلب العودة إلى عقيدة أبسط وعبادة « العهد الجديد » .

وفي حاجة عنيدة نشر كتابه « مائة لسان » Centiloquium theologicum

في علم اللاهوت واحتكم إلى مائة عقيدة للكنيسة ورأى أن كثيراً منها يؤدي منطقياً إلى نتائج سخيفة لا تحمل ؛ فمثلاً إذا كانت مريم أم الله وكان الله والدنا جميعاً فإن مريم تكون أما لوالدها . وناقش أوكهام الخلافة الرسولية للبابوات وعصمتهم من الخطأ ، وعلى النقيض من ذلك أكد أن كثيراً منهم كانوا هراطقة وأن بعضهم كانوا مجرمين وطالب بمعاملة رقيقة للهراطقة ورأى أن التعبير عن الرأي يجب أن يترك حراً إلا بالنسبة لنشر الزيف المتعمد . ورأى أن المسيحية في حاجة إلى العودة من الكنيسة إلى المسيح ومن الثروة والسلطان إلى البساطة في الحياة والخضوع لحكم الشريعة ويجب ألا تكون الكنيسة مقصورة على رجال الدين وحدهم بل يجب أن تضم المجتمع المسيحي بأسره . وهذه الزمالة الكاملة بما فيها النساء يجب أن تختار ممثلين لها يكون من بينهم نساء وتدعوهم إلى عقد مجلس عام وهذا المجلس يجب أن يختار البابا ويرأسه ويجب أن يكون على رأس الكنيسة والدولة شخص واحد .

ويجب أن تكون الحكومة نفسها خاضعة لإرادة الشعب لأنه يملك كل السلطة النهائية على وجه الأرض . وهو يفوض حقه في التشريع والإدارة إلى ملك أو امبراطور على أساس أنه سوف يصدر القوانين لصالح الجميع ؛ وإذا كان الصالح العام يقتضى هذا فإن الملكية الخاصة يمكن أن تلغى . وإذا ارتكب الحاكم خطأ جسيماً فإن حقيقة العقيدة الدينية تقضى عليه

بالصيام . وقد مات متأثراً بالطاعون عام ١٣٤٩ أو عام ١٣٥٠ وهو لا يزال في زهرة العمر .

ونحن لا نعرف إلا القليل عن مصير أوكهام فهو لم يجد في جمعة ميونيخ عزاء له عن نبيذ باريس الذي افتقده ، وقد قارن نفسه بجون الإنجيلي في باتموس وإن كانت لم تواته الجرأة على التمخلى عن حماية الإمبراطور . وطبقاً لرواية أحد الفرنسيسكان المعاصرين وقع الراهب المتمرد في آخر سنى عمره إقراراً ينكر فيه هرطقاته ، ولعل تصالح لويس مع الكنيسة جعلت هذا أمراً يمليه العقل والرشد، وربما يكون وليام قد أحس بأن التساؤل عن حقيقة عقيدة دينية أمر سخيف . ومات متأثراً بالطاعون عام ١٣٤٩ أو عام ١٣٥٠ وهو لا يزال في مقتبل العمر .

وقبل وفاته بزمن طويل اعترف به كأقوى مفكر في عصره وارتجت الجامعات بالجدل حول فلسفته . وقبل كثير من علماء اللاهوت وجهة نظره في أن العقائد الأساسية للدين المسيحي لا يمكن إثباتها بالعقل وأن التمييز بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية كان واسع الانتشار في القرن الرابع عشر كما تنتشر اليوم المهادنة المفهومة ضمناً بين التحقيق العلمي والخدمة الكهنوتية الدينية . وفي أكسفورد تكونت مدرسة من أتباع أوكهام أطلقت على نفسها اسم « الحياة العصرية » (كما سمي أويلارد مذهب التصوري قبل ذلك بثلاثمائة عام) وسخرت من الواقعية الميتافيزيقية لسكوتوس أكويتاس . وكان انتصار العصريين بخاصة ساحقاً في جامعات أوروبا الوسطى فإن هس في براغ ولوثر في أرفورت كانا يتلقيان المذهب الاسمي وربما يعزى تمردهما إليه . وفي باريس منعت سلطات الجامعة (١١٣٩ - ٤٠) تدريس آراء أوكهام ولكن كثيراً من تلاميذه وبعض الأساتذة هللوا له باعتباره حاملاً للواء الفكر الحر وحدث أكثر من مرة أن تقاطلت الأنحزا

المعارضة كما يحدث الآن ، بالكلمات واللطمات في المقاهي أو في الشوارع .
ولعل توماس أكيمس Thomas a Kemps أدان الفاسفة في كتاب « محاكاة
المسيح » كرد فعل ضد آراء أوكهام وقد لعب أوكهام دوراً ، وإن اقتصر
على صوت ، في تأليب الحكومة الوطنية ضد الكنيسة العالمية وقد أثرت دعوته
إلى أن يكون رجال الدين فقراء في ويكليف كما أن هجماته على البابوية
واستنصاره الدائم للإنجيل والمسيحية الأولى بدلا من الكنيسة مهدت لظهور
لوثر الذي عده أوكهام من أعظم أساتذة فلسفة الكلام وأكثرهم عبقرية إذ
عبر سلفا في مذهبه في الاختيار ومذهبه في الفردية عن الروح القوية لعصر
النهضة ثم إن مذهبه في الشك انتقل إلى راموس ومونتيني وربما إلى أرازموس ،
ومذهبه وتحديد الذات للمعرفة بالأفكار رمز إلى بركلي كما أنه سبق
« كانت » بمحاولته إنقاذ الإيمان عن طريق « العقل العملي » وعلى الرغم
من أنه مثالي من الناحية الفلسفية فإن تأكيده أن الإحساس هو المصدر
الوحيد للمعرفة جعله يتبوأ مكاناً مرموقاً في موكب الفلسفة الإنجليزية
التجريبية من روجر وفرانسيس بيكون من خلال هوبز ولوك وهيرم وميل
ومن سبنسر إلى برتراند راسل . واقتحامه الطارئ لميدان العلم الطبيعي -
وإدراكه لقانون القصور الذاتي ورأيه في العمل على بعد - حث المفكرين من
جان بوريدان إلى إسحق نيوتن والنتيجة العامة لعمله شأنه في هذا شأن دونس
سكوتوس ، هو تقويض الغرض الأساسي لفلسفة الكلام - وأن العميدة
المسيحية في القرون الوسطى يمكن إثباتها بالعقل وقد حافظت فلسفة الكلام
حتى القرن السابع عشر ، على وجود باهت بعد الموت ولكنها لم تسترد
قوتها بعد هذه الصفحات .

٦ - المصلحون

بينما كان ابن خلدون يضع قواعد علم الاجتماع في العالم الإسلامي كان

بيير دييوا ونيكول أورزم ومارسيلوس البادوى ونيكولاس الكوزاوى يطورون فى العالم المسيحى الدراسات التى تبحث العلاقة بين الأقارب وإن كانت أقل تنسيقا . وقد خدم دييوا ملك فرنسا فيليب الرابع كما خدم أوكهام ومارسيلوس الملك لويس البافارى بتوجيه حملات فكرية ضد البابوية . وفى ابتهال لشعب فرنسا للملك ضد البابا بونيفاس (١٣٠٨) وفى رسالة عن استرداد الأرض المقدسة أوصى المدره الغيور على هذا المبدأ بأن تجرد البابوية من كل أملاكها الدنيوية وسلطانها الزمنى ، وأن يرفض حكام أوروبا الخضوع لسلطات البابا فى محاكمهم وأن تنفصل الكنيسة الفرنسية عن روما وتخضع للسلطة الزمنية والقانون . فضلا عن هذا فإن دييوا مضى قدماً يقول إن كل أوروبا يجب أن تتحد تحت لواء ملك فرنسا باعتباره إمبراطورا يتخذ عاصمته فى القسطنطينية وأن تكون هذه قلعة تناهض الإسلام وأنه يجب إنشاء محكمة دولية تفصل فى المنازعات بين الأمم وأن تعلن مقاطعة اقتصادية لكل أمة مسيحية تبدأ الحرب ضد أمة مسيحية أخرى وأن تتاح للنساء الفرص التعليمية نفسها وأن تكون لهن نفس الحقوق السياسية كالرجال .

ويبدو أن أحدا لم يعر هذه الآراء التفاتا ولكنها اقتحمت التيارات الفكرية التى قوضت صرح البابوية . وبعد مرور قرنين على وفاة دييوا اتبع هنرى الثامن ، الذى لم يسمع عنه ولا ريب ، برنامجا هو وويكليف فى الدين وفى مطلع القرن التاسع عشر أقام نابليون إلى حين أوروبا المتحدة تحت الزعامة الفرنسية وجعل من البابا أسيرا للدولة . وليس من شك فى أن دييوا من زمرة المشتغلين بالشرعية الناهضين الذين كانوا يطمحون إلى ألا يقوم رجال الدين بتوجيه سياسة الحكومة . وقد فاز فى معركته ونحن نجنى اليوم ثمار انتصاره .

وقد كتب أورزم الذى أثار كثيرا من المناقشات الحامية حوالى سنة

١٣٥٥ مقالات صريحة واضحة في الأدب الاقتصادي ، عن الأصل والطبيعة والشريعة وتغيير العملة وقال إن عملة البلد ملك للجماعة لا للملك فهي منفعة اجتماعية وليست عائدا ملكياً وللمحاكم أو الحكومة تنظيم إصدارها ولكن يجب أن يحافظ على قيمتها المعدنية ولا يخفضها وأى ملك يخفض قيمة العملة لص . وفضلا عن هذا فإن العملة الرديئة (وفقا لقانون جريشام) تطرد العملة الجيدة من التداول والناس يخفون أو يصدرون العملة الجيدة والحكومة غير الآمنة لن تتلقى في دخولها سوى العملة البخسة . ولم تكن الآراء التي ردها أورزم مثلا عليا فحسب بل إنه درسها بصفته مربيا ، لابن جون الثاني . وعندما أصبح هذا الطالب شارل الخامس استفاد الملك الشاب ، بعد تدهور للعملة ، من تعليمات أستاذه واستعاد شتات أمواله ف نسا بعد أن تخلصت من الحرب على أساس سليم شريف .

كان مرسيلْيوس البادوي ذا مزاج أكثر تقبلا من أورزم : كان فيلسوفاً لا يلين ينادى بالفردية فخورا بفكره وشجاعته وكان يجعل فلسفته السياسية جزءا لا ينفصل من حياته القلقة . وكان ابنا لموثق عقود في بادوا ودرس الطب في الجامعة ولعله يدين ببعض تطرفه المناهض للأكليروسية إلى جو من مذهب الشك الذي يرجع إلى ابن رشد الذي وجدته بترارك وفضحه في الجيل نفسه . وعندما انتقل إلى باريس أصبح مديرا للجامعة وشغل هذا المنصب عاما . ثم ألف عام ١٣٢٤ بشيء من التعاون مع جون الجندواني أعظم رسالة أثرت على السياسة بالعصور الوسطى وهي « المدافع عن السلام » .

ولما كان المؤلفان يعلمان أن الكنيسة سوف تستنكر كتابهما فقد فرا إلى نورمبرج ووضعوا نفسيهما تحت جناح الإمبراطور لويس البافاري ثم حاربا البابا . ولم يتوقعا من محارب شديد المراس مثل جون الثاني والعشرين أن يتقابل بالهدوء دفاعهما الشديد عن السلام . وقد برهن هذا الكتاب على أن

السلام في أوروبا يقوضه النزاع بين الدولة وبين الكنيسة وأنه يمكن استعادة السلام والحفاظ عليه بوضع الكنيسة بكل ممتلكاتها والعاملين بها تحت نفس السلطة الإمبراطورية أو الملكية مثل باقي الجماعات والأموال ، ومن الخطأ (كما جاء في البحث) أن تقتنى الكنيسة ممتلكات ، فليس في الكتاب المقدس ما يبرر هذا الاقتناء .

وعرف المؤلفان الكنيسة كما فعل أوكهام بأنها طائفة المسيحيين بأكملها . وكما كان الشعب الروماني ، صاحب السيادة الحقيقي في القانون الروماني ، وكان هذا الشعب هو الذي يفوض في سلطته القناصل أو الشيوخ أو الأباطرة فإن على الجماعة المسيحية أن تفوض في سلطاتها ، ممثليها من رجال الإكليروس وان كان لا يجب أن تسلم لهم قيادتها ، ويجب أن يكون هؤلاء مسئولين أمام الشعب الذي يمثلونه وادعاء البابا أنه يستمد سلطته من بطرس الرسول خطأ تاريخي في نظر مارسيلوس إذ لم يكن بطرس أقوى سلطة من باقي الرسل ولم يكن لأساقفة روما في أوائل عهدهم في القرون الثلاثة الأولى سلطة تزيد عن سلطة الأساقفة في كثير من العواصم القديمة الأخرى وكان يرأس المجالس العامة الأولى الإمبراطور أو نوابه وليس البابا ، وأي مجلس عام ينتخبه شعب العالم المسيحي يجب أن يفسر الكتب المقدسة ويعرف العقيدة الكاثوليكية ويختار الكرادلة وهؤلاء يجب عليهم أن يختاروا البابا . ويجب على رجال الإكليروس بما فيهم البابا أن يخضعوا للقضاء المدني والقانون في جميع الأمور الدنيوية ، ويجب أن تعين الدولة رجال الإكليروس وتمنحهم مرتبات وتحدد عدد الكنائس والقسس وتستغنى عن القسس كما رأت أنهم غير جديرين بمناصبهم وتراقب الهبات الكنسية والمدارس التابعة للكنيسة ودخلها وترفه عن الفقراء من فائض دخول الكنيسة .

ها هو صوت الدولة الوطنية الطاغية يرتفع مرة أخرى . وما إن أخضع الملوك البارونات والكومونات بفضل موازة الطبقات الوسطى الناهضة

حتى أحسوا بأنهم بلغوا من القوة حدا جعلهم يرفضون ادعاء الكنيسة بأن لها السيادة على السلطة المدنية . وانتهز الحكام الزمانيون الفرصة التي أتاحتها لهم انحطاط السلطة الدولية والأدبية للكنيسة وأخذوا يحلمون بالسيطرة على كل وجوه الحياة في ممالكهم بما فيها الدين والكنيسة وكانت هذه النتيجة تستحق الكفاح في الإصلاح الديني . ويعد انتصار الدولة على الكنيسة مرحلة نهائية في العصور الوسطى .

(في سنة ١٥٣٥ أمر هنري الثامن ، وهو في أوج تمردة على الكنيسة ، بترجمة كتاب المدافع عن السلام ونشره على نفقة الحكومة) وبعد أن اقترح مارسيلوس ، مثل أوكهام ولوثر ، أن يستبدل بسلطة الكنيسة سلطة الشعب ، اضطر ، بسبب النظام الاجتماعي ومن أجل سلامته الشخصية أن يستبدل بها سلطة الحكومة . ولكنه لم يرفع من شأن الملوك حتى يصبحوا غيلانا قادرين على كل شيء فقد كان يتطلع من وراء انتصار الدولة إلى اليوم الذي يمارس فيه الشعب فعلا سيادته التي طالما ود فقهاء القانون أن يقلدوها له . ودافع عن الديمقراطية في مجال الإصلاح بين رجال الكنيسة ، فعلى كل طائفة مسيحية أن تختار ممثلاً لها في مجالس الكنيسة وعلى كل أبرشية أن تختار قساوستها وتراقبهم وتطردهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، ويجب ألا يحرم عضو في الأبرشية دون موافقتها ، وطبق مارسيلوس مبادئ مماثلة على الحكومة المدنية وإن كان قد أدخل عليها بعض التعديل على استحياء :

طبقاً لحقيقة ورأى أرسطو ، نعلن أن المشرع - الدافع الأول والصحيح لسن القانون - يجب أن يكون هو الشعب - طائفة المواطنين بأكملها أو قسمها الأثقل وزناً ، تأمر وتقرر بمحض اختيارها أو إرادتها ، وتعبر عن رأيها شفويًا في جمعية عمومية للمواطنين . . . وأقول قسمها الأثقل وزناً ، أخذاً في الاعتبار عدد الأشخاص وصفاتهم معا في الجماعة التي يسن من أجلها القانون . وطائفة المواطنين بأسرها أو قسمها الأثقل وزناً إما أن تسن

القانون مباشرة أو تعهد بهذه المهمة إلى البعض أو إلى فئة قليلة ، ولكن هذه الأخيرة لا تكون ، أو لا تستطيع أن تكون ، المشرع بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة ، فهي تعمل فقط في مجال هذه الأمور - وهذه الفترات التي تخول لها من المشرع الأول . . . وفي رأي أن المواطن هو كل من يشارك في الجماعة المدنية بسلطة مداولة أو سلطة قضائية على حسب رتبته ، وعلى أساس هذه التعريفات يفرق القصر والعبيد والأجانب والنساء عن المواطنين . . . وخير قانون يصدر هو الذي يكون نتيجة مداولة وثمره إرادة الجماعة بأسرها . . . ويمكن لأغلبية منها ، بسرعة أكثر من سرعة أية أقسام منها ، إصدار أي قانون يقترح سنه لأن أي طائفة بأكملها أعظم سلطاناً وثروة من أية أقسام منفصلة .

وهذا بيان عظيم بالنسبة لعصره (١٣٢٤) ولا شك أن ظروف العصر تبرر ما صاحبه من تردد . بل إن مارسيلوس لم يكن بوسع أن يدافع عن المساواة في التصويت بين جميع البالغين في أوروبا حيث كان من العسير أن تجد واحداً يستطيع القراءة بين كل عشرة وحيث كانت المواصلات صعبة والانقسامات الطبيعية راسخة لا تززع بمرور الزمن . والحق أنه رفض الديمقراطية الكاملة التي تتحدد فيها السياسة والتشريع بعدد الأنوف (مجموعة من الناس المعوزين) ولتصحيح هذا الفساد في جمهورية كان يريد من الأفراد أن تكون لهم سلطة سياسية مناسبة لمكانتهم في المجتمع ، وإن لم يقل كيف ومن يحكم على هذا . وأفسح مكاناً للملكية ولكنه أضاف أن « الحاكم الذي ينتخب أفضل بكثير من الحكام الذين يتبأون مناصبهم بالوراثة » فالملك يجب أن يكون نائباً وخداماً للجمهور وإذا أساء السلوك فإن من حق الجمهور أن يخلعه .

ولهذه الآراء أصل يرجع للقرون الوسطى بل إن لها أصلاً قديماً ، فقد منح المحامون الرومان والفلاسفة الكلاسيون بانتظام الشعب سيادة نظرية

وكانت البابوية نفسها ملكية انتخابية إذ كان البابا يطلق على نفسه اسم «خادم أجراء الله» وقد وافق توما الأكويني على رأى جون أف سالسبورى القائل بحق الشعب فى خلع أى ملك يخالف القانون . ولكن قلما بلغت هذه الآراء فى العالم المسيحى درجة تصل إلى صيغة واضحة لحكومة برلمانية ، وها هو رجل فى القرن الرابع عشر جمع بين آراء أنصار الإصلاح الدينى من البروتستانت والمؤيدين للثورة الفرنسية .

وكان مارسيلوس سابقا جدا لعصره فلم يهدأ لحظة واحدة إذ ارتفع شأنه بسرعة بارتفاع شأن لويس البافارى وسقط كذلك بسقوطه . وعندما عادى لويس الباباوات طلب منه أن يطرد مارسيلوس باعتباره هرطيقا ولا ندرى شيئا عن النتيجة ، ويبدو أن مارسيلوس مات عام ١٣٤٣ وهو منبوذ من الكنيسة التى حاربها ومن الدولة التى عمل على رفع شأنها .

ولعل نجاحه المؤقت ما كان ليتحقق لو لم تخول مهنة القانون الناهضة للدولة سلطة تنافس سلطة الكنيسة . فقد رفع المحامون « القانون الوضعى » للدولة إلى جانب ، وغالبا ضد ، القانون الكنسى ، وعلى أطلال القانون الإقطاعى والشيوعى ، وانتشر هذا القانون الملكى أو الدنيوى على الأيام وتغلغل فى أمور الناس . وأخرجت مدارس القانون فى مونبلييه وأورليانز وباريس قانونيين يتصفون بالجرأة والدهاء ، وقد استخدموا القانون الرومانى لتكوين نظرية الحق الإلهى والسلطة المطلقة لسادتهم من الملوك وذلك مقابل الادعاءات البابوية . وكانت هذه الآراء أقوى فى فرنسا منها فى أى مكان آخر إذ انتشرت هناك فى صورة شعارات مثل « أنا الدولة » و « الملك الشمس » كما سادت فى اسبانيا ومهدت بذلك إلى الحكم المطلق لفرديناند وشارل الخامس وفيليب الثانى بل إن ويكلييف فى إنجلترا البرلمانية قال بسلطة غير محدودة للملك المقدس . وعارض النظرية أعضاء مجلس اللوردات والعموم وأصر سيرجون

فورتيسكو على أن الملك الإنجليزي لا يستطيع أن يصدر قوانين دون موافقة البرلمان وأن القضاة الإنجليز ملزمون بمقتضى قسمهم أن يحكموا وفقاً لقانون البلاد مهما كانت رغبة الملك ولكن إنجلترا ركعت بدورها أمام حكام مستبدين في عهد هنرى السابع وهنرى الثامن واليزابث . وبين استبدادى البابوات وأندادهم من الملوك اعتصمت بعض النفوس المثالية بفكرة « القانون الطبيعى » وهو يقوم على عدالة إلهية متغلغلة في الضمير الإنسانى ومنصوص عليها فى الأناجيل وهو قانون أعلى من أى قانون من صنع الإنسان . ولم تعبأ الدولة أو الكنيسة بهذا المفهوم وظل فى المهاد معترفاً به ومتجاهلاً فى الوقت نفسه وإن ظل هذا المفهوم حياً واهياً . وقد تبنى فى القرن الثامن عشر إعلان الاستقلال الأمريكى والإعلان الفرنسى لحقوق الإنسان ولعب دوراً صغيراً وإن كان بليغاً فى ثورة قوضت لبعض الوقت عروش الحكام المستبدين الذين حكموا العالم وحارب نيكولاس الكوزاوى استبداد البابوية ثم استسلم لها .

وفى خلال حياته المتقلبة أظهر أفضل وجه للمسيحية المنظمة بالنسبة لألمانيا التى لم تكن تطمئن إلى الكنيسة . وقد جمع فى إهاب شخصيته القوية خير عناصر العصور الوسطى التى تلائم حياته وذلك باعتباره فيلسوفاً وإدارياً وعالمياً باللاهوت وقانونياً . وقد ولد فى كولس قرب ترير (١٤٠١) وجمع بين التضام فى القانون والتخصص فى الدين فى مدرسة « إخوان الحياة المشتركة فى ديفنتر » وفى عام قضاه بهيدلبرج تأثر بمذهب أوكهام الاسمى فى بادوا تأثر بمذهب الشك عن ابن رشد بعض الوقت وفى كولونيا تشرب التراث الأورثوذكسى لألبرتوس ماجنوس وتوما الأكوينى . لقد كانت فيه كل العناصر التى تجعل منه أكمل مسيحي فى عصره .

ولم يتخل قط عن نزعته الصوفية التى انتقلت إليه من ما يستر اكهارت

فكتب مؤلفاً كلاسيماً في التصوف عنوانه : « رؤية الله » وفي دفاع فلسفي عن مثل هذه الرؤى « دفاع عن الجهل العليم » *Apologia doctae ignorantiae* صاغ عبارة مشهورة هي « الجهل العليم » ورفض المذهب العقلي الكلامي الذي يبحث في إثبات علم اللاهوت بالعقل وذهب إلى أن كل المعارف الإنسانية نسبية وغير ثابتة فالحقيقة خفية في الله . وأعرض بوجه عام عن التنجيم وإن كان قد انهمك في بعض الحسابات الفلكية مستسلماً في ذلك للأوهام الشائعة في عهده وظن أن نهاية العالم ستكون عام ١٧٣٤ . وفي وسط حياة تزخر بالنشاط الكنسي حافظ أولاً وقبل كل شيء على الفكرة العلمية وحث على القيام بمزيد من التجربة ومزيد من المقاييس الدقيقة وأشار إلى زمن سقوط الأجسام المختلفة من شتى الارتفاعات ودرس أن الأرض « لا يمكن أن تكون ثابتة ولكنها تتحرك مثل غيرها من النجوم فكل نجم يتحرك مهما بدا لنا ثابتاً ، وكل مدار فلكي دائري والأرض ليست مركز العالم إلا كما تعد أي نقطة مركزاً للعالم لانتهائي . وكانت هذه الآراء استعارات حكيمة حيناً ولحاث ذكية حيناً آخر .

وذهب نيكولاس عام ١٤٣٣ إلى بازيل ليقيم للمجلس الكنسي هناك مطالب صديق إلى كبير أساقفة كولونيا . وسقطت حجته ولكنه انتهر الفرصة ليقيم للمجلس على خلاف من البابا - عملاً هو ثمرة لخطة مشهورة في تاريخ الفلسفة . وأطلق عليه اسم : *De concordantia Catholica* « الائتلاف الكاثوليكي » وكان الهدف العام الذي يرمى إليه هو أن يتوصل إلى اتفاق بين المجالس وبين البابوات وقد صور الكنيسة وحدة عضوية لا تستطيع أن تؤدي وظيفتها بنجاح إلا من خلال التعاون الوثيق بين أجزائها وذلك في قياس محكم وتركيب متقن . وبدلاً من أن يستنتج نيكولاس ، كما فعل البابوات ، أن الأجزاء يجب أن تسترشد بالرأي فإنه رأى أن مجلساً عاماً فحسب هو الذي يمكن أن يمثل ويعبر عن ويوحد عناصر الكنيسة التي يعتمد بعضها على البعض

الآخر . ورد آراء الأكويني ومارسيلوس بل وسبق آراء روسو وجيفرسون في فقرة مثالية : « كل قانون يعتمد على قانون طبيعي وإذا تناقض معه فإنه لا يمكن أن يكون قانوناً صحيحاً » وبما أن الناس قد خلقوا أحراراً فإن أية حكومة توجد فقط بموافقة رعاياها ورضاهم فحسب . . . والقوة الملزمة لأي قانون يتضمنها هذا الاتفاق وهذا الرضا صراحة أو ضمناً فالشعب صاحب السيادة يفوض في سلطانه بعض الجماعات الصغيرة المزودة بالتعليم أو الخبرة لسن القوانين أو تطبيقها غير أن هذه الجماعات تستمد سلطاتها العادلة من رضا المحكومين وعندما تفوض الجماعة المسيحية في سلطاتها مجلساً عاماً للكنيسة فإن هذا المجلس وليس البابا هو الذي يمثل السلطة العليا في الدين . وفضلاً عن هذا فإن البابا لا يستطيع أن يستند فيما يدعيه من حق شرعي مطلق ، إلى هبة قسطنطين المفترضة لأن هذه الهبة اختلاق وأسطورة . إن للبابا الحق في عقد مجالس عام ولكن مثل هذا المجلس يمكنه أن يخضعه إذا رآه غير لائق بمنصبه . ونفس المبادئ يمكن أن تطبق على الأمراء الزمانيين . وربما تكون الملكية الانتخابية خير حكومة تتاح للناس في حالتها الفاسدة الحالية ولكن يجب على الحاكم الديني ، كما يجب على البابا ، أن يعقد بانتظام مجلساً نيابياً ويجب أن يخضع للقوانين التي يصدرها هذا المجلس .

وكان مثالا يحتذى للبطاركة في أخريات أيامه فعندما رسم كاردينالا عام ١٤٤٨ أصبح شخصية كاثوليكية مصلحة . وقام بجولة مجهدة في هولندا وألمانيا وعقد خلالها مجمعات مقدسة إقليمية وأحيا النظام الكنسي وأصلح أديرة الرهبان والراهبات وهاجم تسرى القسس وارتقى بتعليم رجال الإكليروس ورفع على الأقل لفترة ما المستوي الخلقى لرجال الدين والشعب . وقد كتب العلامة أبوت تريميميوس : « ظهر نيكولاس الكوزاوى في ألمانيا كملك ينشر النور والسلام وسط الظلام والشك وقد أعاد وحدة الكنيسة ودعم سلطة رأسها الأعلى وزرع بذرة ثمينة في حياة جديدة .

ويمكن لنيكولاس أن يضيف إلى ألقابه الأخرى لقب عالم بالإنسانيات فقد أغرم بالكلاسيات القديمة وشجع على دراستها وفكر في طبع المخطوطات اليونانية التي أحضرها بنفسه من القسطنطينية لتوزيعها على نطاق واسع وكان يتسم بتسامح العلامة الحقيقي فقد طالب بتفاهم متبادل بين الأديان كالأشعة المختلفة المنبعثة من حقيقة أزلية واحدة وذلك في كتاب « حوار حول السلام » الذي ألفه في نفس العام الذي سقطت فيه القسطنطينية في أيدي الأتراك . وفي فجر الفكر الحديث عندما كانت حرية الرأي سما ناقعا كتب هذه الكلمات السليمة النبيلة :

« إنها لمتعة أن تعرف وأن تفكر وأن ترى الحقيقة بعين العقل . وكلما تقدم المرء في السن وجد في هذا متعة أكبر ولما كان الحب هو حياة القلب فإن حياة العقل في السعي وراء المعرفة وبحقيقة الحياة . ووسط حركات الزمن والعمل اليومي وتناقضات الحياة وارتباطاتها فإننا يجب أن نرفع أبصارنا بلا خوف صوب قبة السماء الصاخبة ونحاول الحصول على إدراك أشد رسوخا لأصل كل خير وجمال ومدى قدرة قلوبنا وعقولنا وثمار العقول البشرية كلها خلال القرون وظواهر الطبيعة الرائعة حولنا على أن نذكر دائماً أن العظمة الحققة إنما تكمن في التواضع وحده ولا يمكن الإفادة من المعرفة والحكمة إلا إذا كانتا تسيطران على حياتنا :

ولو قد ظهر كثرون من أمثال نيكولاس لما قدر لمثل لوثر أن يوجد .